قصص

حكايات

الديب رماح

خيرى عبد الجواد

دراسة

إدوار الخراط

الديب رماح

المؤلف :خيرى عبد الجواد

الغلاف : حلمى التونى

الإخراج الفنى : د . يحيى عبد الظاهر

الطبعة الثانية ١٩٩٥

الناشر :

الجمع والصف الالكترونى:





٤ شارع العلمين - ميدان الكيت كات - جيزة

ت : ٣٤٤٨٣٦٨

رقم الإيداع : ٩٤/١١٣٩٧

الترقيم الدولي : I.S.B.N.977-5121-64--7

إهداء ..

إلى أمى ...

الراقدة فى حضن أمها الأرض مبتسمة

كما يبتسم طفل

ليس به ألم

مستغرقة فى سنة من النوم

يداها على صدرها الهادىء

تنامان فى دعة وسكون

أحكى لك عن زماننا

يا أم ..

خيرى عبد الجواد

مقدمة

* هبت يوما ريح شديدة فأقبل الناس يدعون الله ويتلون ، فصاح جحا :

" يا قوم لا تعجلوا بالتوبة إنما هى زوبعة وتسكن "

* جحا ذلك الزمان *

السحلية



لو يعلم أبى عند اجتماعه بنا على الطبلية أننى سوف أقتلها ، ما كان تركنى . ولو أنه نظر فى عينى فى تلك اللحظة ، ما كان رأى شيئاً.

حدثنى أبى كثيرا عنها ، وحدّث جدى أبى ، وحدثت جدتى جدى .

قالوا جميعا أن بأحشائها مفتاحين ، أحدهما للجنة والآخر للنار ، ولم أكن قد رأيت الجنة وكنت قد صممت على أخذ مفتاح الجنة من أحشائها. لم آكل كَثيرا ، نظر إلىّ أبى فى لوم حتى أكمل طعامى ، زجرتنى أمى لأنى أصبحت مسلولا مثل خيال المآتة من قلة الأكل . كان كل تفكيرى فى هذه اللحظة فى كيفية اصطياد واحدة . كنت أعلم أن حارتنا تمتلىء بها وكثيرا ما كنت أراها ، لكنى لم أكن أدرى أن بها مفتاحين ، قال صديق لى أن مفتاح الجنة لا بد وأن يكون من الذهب الخالص ، خرجت إلى الحارة أحمل فى يدى علبة صفيح ، كان الشارع يمتلىء بالناس والأطفال ولم يكن هناك سحالى ، قررت أن أنتظر عند أحد الشقوق التى أعرفها جيدا وأعرف أن بها سحال كثيرة ، جلست على حجر بجانب الشق ، أخذت أنظر إليه وقد بان أسفل الجدار مشتبكاً مع الأرض مكونا خرما يتسع لادخال يدى ، مرت ساعة ولم تمر أمامى سحلية واحدة، مرّت ساعة أخرى ومرت من أمامى خنفساء، كان جسمى يقشعر ولكنى نظرت إليها باستهانة ، تركتها تسير رغم رغبتى الشديدة فى دهسها بقدمى ، شعرت بالجوع . فأخرجت من جيب البيجامة لقمة ناشفة أخذت أقضمها بتلذذ ، كأن الأرض انشقت وابتلعت كل سحالى الحارة ، مرّ النهار وأظلمت الدنيا ولم تكن بى رغبة فى الرجوع قبل أن أصطاد واحدة ، لو أننى رجعت الآن لضربنى أبى كما يضرب أمى كل ليلة ، أخذت أبحلق فى الخرم ، شعرت فجأة برأسى يرتج ، نظرت

ورائى، أمامى ، بجانبى ، كان يقف ويده فوق رقبتى ، نظرت إليه فى دهشة ، أمسكنى من ياقة بيجامتى ، جرجرنى فى اتجاه المنزل : انتهيت خلاص من دروسك عشان ترمح الرمح ده يا جبان . كانت رغبتى فى البكاء شديدة ، لكنى لم أبك : أنا خلصت مذاكرة .

ضربنى بقدمه ، وقعت ، لم أبك ، غور من وشّى على أوضتك ، إياك أشوفك صاحى . صعدت إلى السرير، لم أكن أريد النوم ، قررت أن أظل مستيقظا تحت اللحاف ، رأيتها ، كانت تتسلل خارجة من الخرم ، كان الخرم كبيرا وكانت السحلية كبيرة جدا ، لم أر مثلها فى حياتى، أخرجت لسانها فبان مثل " الأستك " الرفيع ، وقفت أمامى ، نظرت إلىّ، نظرت إليها ، كانت عيناها حمراوين ، لم تكن معى علبة الصفيح، مدت لسانها فجأة فلسعنى فى وجهى ، أخذ يلتف حول وسطى وعنقى وقدمى، أخذت تشدنى إليها ولكنى أمسكت بالأرض وأخذت أصرخ ولم يكن هناك أحد بالشارع فأخذت أتجه إلى فمها الواسع جدا وابتلعتنى ، تخبطت فى الجدران وكان الظلام شديداً ، إصطدمت بشىء صلب ، كان يشع نوراً ، لمسته ، كان ناعماً ، تحسسته ، كان مفتاحا ، بل كانا مفتاحين كبيرين ، كانا متشابهين حتى أننى لم أعرف أيهما مفتاح الجنة، وضعت إصبعى على أحدهما ، أشرت للآخر ، قلت : حادى بادى، سيدى محمد البغدادى ، دى من دى ، يا خير الله ، الأحسن دى . استقرت يدى على أحدهما ، قلت : هذا هو مفتاح الجنة ، حملته رغم ضخامته الشديدة ، كانت هناك سلالم تتجة إلى أعلى ، صعدت عليها إلى أن أصبحت فى الخارج، نظرت إلى السحلية، قلت : أنا متشكر...

نظرت إلىّ وضحكت ، نظرت إليها وضحكت ،إبتعدت عنى ، حملت المفتاح فوق كتفى ، أخذت أسير فى طريقى إلى الجنة ، لم أكن أدرى

أين توجد الجنة ولكنى أخذت أسأل بصوت عال : فين الجنة والنبى ياعم.

قال أبى أننى فقدت عقلى وصفعنى على وجهى ، قمت مفزوعا وأخذت أبكى لأننى لم أجد المفتاح بجانبى ، نظرت إلى أبى ، أحسست أنه أخذ المفتاح ليذهب بمفرده إلى الجنة ، قررت أن أسبقه وكنا نجلس حول " الطبلية " ، لم آكل كثيراً وكنت أنظر إلى أبى ، وجدت المفتاح يطل من زاوية عينه ، خبأت نصف رغيف ناشف داخل جيب البيجامة ، بحثت عن العلبة الصفيح قلت : أنا رايح أذاكر عند حسين صاحبى ، لم أذهب لحسين ، وقفت عند الخرم ، نظرت إليه ، كان بالأمس واسعاً ، وجدته ضيقاً شديد الضيق ، جلست على الحجر المواجه للخرم ، وضعت العلبة الصفيح بجانبى ، أخرجت نصف الرغيف الناشف ، أخذت أمضغه، قلت : اطلعى يا سحلية عشان أسبق أبويا وأروح الجنة أنا وانت . كان الخرم يتسع ، وكانت هناك سحلية تزحف خارجة منه ، وقفت ، أمسكت " زلطة " فى يدى ، أخرجت لسانى : أنا رايح الجنة غصب عنكم . قذفت " الزلطة " لم تصب السحلية ، قذفت أخرى لم تصب السحلية أيضا، لم أجد زلطة أخرى أقذفها بها وقفت السحلية ، استدارت لى ، نظرت إلىّ، أخرجت لسانها ، لم يكن طويلا مثل " الأستك " جريت أبحث عن زلطة ، نظرت ورائى ، كانت السحلية تبتعد.

مارس ١٩٨٢

○ ○ ○



الحاوى

لأن الجوع "كافر" فقد مضغنا العلقم وكان حلو الطعم فأكلنا حتى نزفت أحشاؤنا ديدانا زرقاء .

ولأن الفقر نعمة كما قال أولو الأمر منا ، فقد حمدنا الله كثيرا ، وقبلنا أكفنا عرفاناً . ولأن المرض يذهب السيئات ، فقد طلبنا المزيد حتى نضمن الجنة .

ولأن الصبر مفتاح الفرج ، فقد صبرنا ورفعنا أكفنا بالدعاء عسى أن يستجيب الله فيأخذ كل منا مفتاحه بعد طول صبر . ولأن حضارتنا تمتد فى أغوار الزمن سبعة آلاف عام ، فقد جرينا خلف الأهرامات ، وحملناها على أكتافنا فضحك العالم، وهذا بالطبع جعلنا سعداء لإعجاب العالم بحضارتنا .

ونحن بالطبع نعرف قيمة حورس فقد بعناه بجنيهات كثيرة وسكتت بطوننا .

(١)

عندما دخل الحاوى قريتنا لأول مرة ، والتف حوله الناس ، قال لنا :

أستطيع أن أخرج لكم من البيضة بقرة "عشر" .

قلنا : وهل تستطيع أن تخرج لنا خبزا فنحن جوعى

قال : أستطيع أن أجعلكم أغنياء .

فصفقنا له كثيرا ، وانتظرنا خروج البقرة من البيضة ، وانتظرنا أن تمتلئ بطوننا ، ولكننا نمنا ونحن نصفق وننتظر ، وعندما صحونا نظرنا إلى أنفسنا واندهشنا ، فقد وجدنا أننا عرايا ، ومشى الحاوى .

(٢)

قلنا : إذا جاء هذا الحاوى مرة ثانية فلن نجعله يخرج من قريتنا حيا ، وسنأخذ البيضة علها تتمخض بقرة وخبزا . ولكن جاء الحاوى يحمل عصا فى يده .

قال : أستطيع تحويل التراب إلى ذهب بهذه العصا .

تجمعنا حوله .

قلنا : لنر كيف تستطيع تحويل التراب ذهبا .

قال : فلتصفقوا لى كثيرا وتباركونى وتصمتوا ، فأنا أستطيع تحويل التراب ذهبا .

قلنا : لنصمت فالصمت من ذهب ، وهذه حكمة بليغة نعرفها جيدا ، وصفقنا له ، وباركناه ، وقلنا نشترى بالذهب قصورا ، ونشترى ملابس جديدة ، تذكرنا أننا جوعى فقلنا نشترى خبزا ، وانتظرنا ونحن ننظر فى التراب الذى سيكون ذهبا ، ولكنا نمنا ، وعندما صحونا نظر كل منا إلى الآخرين ، ولم نجد أذرعنا فقد أخذها الحاوى وهرب .

(٣)

ولأننا أصبحنا بلا أذرع ، فقد أقسمنا إذا جاء الحاوى أن نقطع ذراعيه وقدميه أيضاً ، ولكن جاء الحاوى يحمل زجاجة .

قلنا : سوف نقتلك أيها الحاوى .

قال : لن تستطيعوا أيها الناس الطيبون ، فأنا أحمل لكم أكسير الحياة .

قلنا : وما أكسير الحياة يا حاوى !!

قال : لن تموتوا أبدا ، ستكونوا خالدين .

قلنا : ولكنا جوعى .

قال : لن تحسوا بالجوع .

فتجمعنا حوله وصفقنا له وباركناه، وقلنا لن نجوع بعد الآن ، ولن نموت ، سنكون خالدين ، وانتظرنا أن يخرج أكسير الحياة ، ولكنا نمنا ، وعندما صحونا أصبحنا بلا سيقان ، فقد أخذها الحاوى وهرب .

(٤)

قلنا أصبحنا عرايا ، فقدنا أذرعنا ، هرب الحاوى بسيقاننا ، ونحن جوعى ، ماذا تبقى لنا !! نظرنا إلى أنفسنا فوجدنا أن عقولنا مازالت تعمل فى رؤوسنا ، نسى أن يأخذها الحاوى ، قلنا لن يجئ بعد اليوم لأنه نسى عقولنا ، سوف يخاف أن نبطش به .

فى اليوم التالى جاء الحاوى يحمل آلة عجيبة بين يديه ، قال : انها سحرية .

قلنا : وما هى ؟

قال : يستطيع كل منكم أن يرى نفسه فيها .

رأينا أناسا يتحركون كانت الرؤوس منكسة ، وسمعنا أناسا يتكلمون.

قلنا :إنك حقا ساحر أيها الحاوى ، وكنا نريد قتلك .

قال : ما جئت بهذه الهدية إلا لأنكم طيبون .

قلنا : فلندع له على حسن ظنه بنا ونشكر الله على نعمته التى إختصنا بها دون القرى ، ولكنا جوعى بطوننا خاوية ، أمعاؤنا كادت تذوب .

قال : ستنسون كل هذا الآن ، لن تحسوا بالجوع ، سيبنى كل منكم

قصرا ، وستخرج بقرة من البيضة، سيتحول التراب إلى ذهب ، فقط إجلسوا لتشاهدوا .

قلنا : لنكن عبادا شاكرين فقد أنعم الله علينا .

وعوض صبرنا خيرا بهذا الرجل الصالح .

فى الصباح ، نظرنا فلم نجد الحاوى ، ونظرنا فلم نجد آلته السحرية ، عندئذ شعرنا أننا جوعى لأننا لم نكن قد نمنا بعد .

أغسطس ١٩٨١

○ ○ ○

الكائن الليلى

ابن الليل الذى لا يهمد هدّه المرض .

ابن الليل حار على الحكماء وكل من يعرف التشخيص ورجع كسير الجذع محزون الفؤاد ، تساقطت الدعوات من حنكه الناشف ، رفع كفيه اليابستين إلى السماء ، قال :

شالله يا أهل الله، نَدْرٍ عليّا إذا خفّيت لاقيد دستتين شمع لأهل الله

أدنى كفيه من حنكه، مسح شفتيه المتشققتين بباطن، ملّس على جلبابه ،

قال : اللهم آمين .

ابن الليل الذى يعرف سر الليل كان يخافه الكل ، ابن الليل سعدون جاء ، ابن الليل سعدون ذهب ، الخطوة تزلزل الأرض ، الشارب فدادين مجدعة، الذراع يأكل بلد ، الرجال حوله يبوسون الأرض تحت قدميه ، يسيرون خلفه ، البنادق فوق الأكتاف ، الرعب يشل الصدور ، بصة العين تنزل القلب فى الرجلين .

ابن الليل سعدون ليس من أبناء الأرض :

بنت "الهبلة" التى حطت فى البلد بالليل - كانت عاقرا . كان العبط يركب اليافوخ ، اللون أبيض من حليب النهار ، العيون سود كما الليل ، الشعر راضع من حليب الشمس ، بنت الهبلة تمشى فى البلد ، الرجال يسيرون خلفها ، يضاجعونها ، فى الغيطان المروية ، فى الخرابات المهجورة ، قالوا : لا خوف علينا منها ، هبلة بنت هبلة . أجمل من نسائهم ، أنفقوا عليها ، من يطعمها فهو رجلها ، ذات يوم وجدت مقتولة على جسر الترعة ، بجانبها طفل رضيع يبكى ، قيد الحادث ضد

مجهول ، من أين أتت بالوليد ؟. هى لا تلد !!

حار الرجال ، قالوا لقد ضاجعها الشيطان ثم قتلها ، هذا الوليد ابن شياطين الليل ، كادوا يقتلونه ، أحس كل رجل فى القرية أن هذا الطفل من صلبه ، تعهدوا بحمايته ، ليكن ابن ليل، ويسمى سعدون .

السنوات الأولى من حياة ابن الليل سعدون كما رواها بنفسه :

الأرض فرشى ، السماء لحافى ، قالب طوب "نى" مخدتى ، بلا أب ، بلا أم بلا دار أحتويها وتحتوينى ، أحسست أننى أختلف عن أهل البلدة جميعا . قالوا لا أصل لى - مقطوع من شجرة شيطان - فى السنوات الأولى أحسست بالحرمان ، عوضنى أن كل بيوت القرية كانت بيتى ، دخلت البيوت كلها ، عرفت أسرارها ، عندما خط شاربى فى وشى كانت نظرات النسوة قد تغيرت ، تحسسن عضلات ذراعيّ النافرة ، ركبت نساء القرية كلهن ، فى البداية أحسست أننى أضاجع نفسى ، شئ قريب إلى نفسى ، تلاشى الشعور بفضل الاحساس بالدفء وطراوة الجسد ، طردنى الرجال من القرية ، فى الخلاء مرة أخرى، مواجهة الجوع والأرض الشراقى ، لأنتقم منكم جميعا يا ولاد الكلب ، سوف أركب نساءكم أمام عيونكم، تعرفت على بعض أبناء الليل ، أصبح إسمى كما الطبل ، قيل الناحية كلها ترتعب منك يا بن الليل يا سعدون .

الآتى من صلب شياطين الليل يبحث الآن عن حكيم :

من يقدر يداوى العليل يا خلق الله ، كما أيوب ابتليت .

كمن يبتعد عن كلب أجرب ابتعد عنه رفاق الليل ، هام على قدميه فى البرارى ، شوروا عليًا يا خلق الله .

دى مصر فيها الدوا ، دواك عند المشايخ .

شالله يا أهل الله ، لآجى وأتمرغ على بابك يا سيدى يابو السعود ياطبيب الجراح .

من حضن الليل انفلت يبغى النهار ، ركب أول قطار قادم إلى مصر ، على أبواب المشايخ حط ، دخل مقام السيدة ، ملس على الحديد الناعم ، أحس بالرطوبة تسرى فى جسده ، دعك كفيه فى وجهه وجلبابه بكى ، طبطب على كتفيه شيخ من مشايخ الضريح ، يا بنى ان مع العسر يسرا . رفع إلى الشيخ عينين ذابلتين ، والنبى تدعى لى يا مولانا . تدحرجت دمعة ساخنة إستقرت على شفته السفلى ، إمتص الدمعة فأحس طعم الملح فى حلقه ، ركب الفجر جلد السماء ، حط إبن الليل على باب أبى السعود ، قيل له : دواك عند أبو السعود ، تنزل دقة زار ترجع عال العال ، لو استعقدتم فى الحجر لأفاد . المرة الأولى فى حياته التى يذهب إلى المشايخ ، قال : للضرورة أحكام . فاجأه إحساس بالوحشة لحظة أن ترك القطار ، لم يترك قريته من قبل ، طوفان من البشر ، لا يعرفون قدرك يا بن الليل يا سعدون ، أكبر شارب فى البلد ركع لك ، أجمل نساء البلد ركبت . سمع التراتيل آتية عن بعد عبر المنازل المقامة حول الضريح ، دخل المنزل المقام فيه الزار ، شالله يا سيدى يابو السعود ، على الله يكون الشفا على يدك. الملابس البيضاء ، الوجوه السمراء والحمراء ، حلقة كبيرة يتوسطها رجال يمسكون دفوفا ، آخرون ينفخون فى مزامير ، يرتدون الشيلان البيضاء فوق رؤوسهم والجلابيب، يرسلون شعورهم الطويلة خلف ظهورهم ، يتمايلون يمينا ويسارا على أنغام الدفوف ، فى منتصف الحلقة تجلس "الكُدية" تنشد الأناشيد وقد أحاط بها جمع من النسوة اللاتى يتمايلن على النغمات ، أخذن يقعن مع تزايد

الدقات فى الإسراع ، إنتهت الدقة ، انصرف جميع الحاضرين والحاضرات ، جلس العازفون والكدية لأخذ قسط من الراحة ، تقدم سعدون ، لمحته "الكدية" ، طلبك يا عمدة !! .

مريض يا ست الشيخة . مفهوم ، مفهوم ، شوية بس نستريح وكل طلباتك مجابة . جلس على الحصير بجانب المرأة التى كانت تشرب الجوزة ، الرجال أيضاً كانوا يشربون الجوزة العامرة بالكيف ، تحسس جيب الصديرى واطمأن على حافظة نقوده ، شعر بأن كل شئ يسير بسهولة - اللهم فوت الليلة دى على خير وارجع زى زمان ، سعدون ملك الليل ، الرجال حولى يبوسون الأرض و، آه

وصف لما حدث فى حلقة الزار:

دخل الليل وقام عازفو الدفوف والمنشدون و"الكدية" وابن الليل سعدون ، أحضرت المرأة كرسيا وضعته وسط الحجرة ، بجانب الكرسى كانت هناك قبة من القماش الأبيض يوجد بداخلها إبريق كبير من الفخار رصت على حوافه شموع أشعلت منذ قليل ، جلس سعدون على الكرسى، أحضرت المرأة فرختين وديكا ، ربطت أرجلها ، وضعت الديك على رأسه والفرختين على كتفيه ، أخذت تخرج من شفتيها أصواتا مبهمة ، إرتفعت دقات الدفوف ، تعالى صوت الفراخ فى الصياح ممزوجا بدقات الدفوف وتراتيل "الكدية" .

صلوا عليه النبى العربى ، صلوا عليه ، ماما الهدى آه يا ماما ، بدر التمام يا "محمد" ، نصبوا الكراسى لماما ، ماما الهدى يا ماما ، صاحب العوايد ماما ، صاحب الدبايح ماما ، نصبوا الميدان يا ماما ، آه يا زهر الورد يا ماما .

أخذ ابن الليل "سعدون" يدور ، تسارعت الدقات ، وقع ، يا سيدى يا أسمر على بابك جيت . ، قام ،يا سيدى يا أسمر على بابك . تسارعت لدقات ، ارتفعت يداه وقدماه فى الهواء ، لم يعد يحس بجسده، سقط ، سقط سقف الحجرة وهوت الأركان ، تراقصت الظلال المضيئة لتصبح ضبابية شفيفة ، هوى إلى الأرض ، صرخ وعوى كما الذئاب ، تقدمت منه "الكدية" ، قالت : أهلا وسهلا ، مين أنت ؟ . تمطى الصوت فخرج عريضا : أنا سيد هذا الكون . مين أنت ؟ .. أنا سيد هذا الكون . تطلب ايه .. أن أحكم هذا الكون . طب إهدأوا ، طلباتكم كلها مجابة ،ارتفعت دقات الدفوف مرة واحدة ، ذبحت المرأة الديك والفرختين فوق رأس إبن الليل "سعدون" . أخذت الدماء الساخنة تغمر رأسه وجسده ، قامت المرأة والتصقت به ، أخذت "تكبس" جسده بيديها قائلة : إنصرفوا بسلام ، طلباتكم على العين والراس .

هل خرجت الأسياد من جسد إبن الليل "سعدون" :

إبن الليل الذى رجع لا أحد يعلم عنه شيئا ، قيل أنه شفى ورجع كما كان ملك الليل ، وقيل أنه لم يشف ومازال الجسد فسدانا والدود يعربد كما إبتلى أيوب ، وقال أهل الحكمة فى البلد "اللى تعب يوم بكره ينعدل ريحه" ، وقال رجل : لعله حط فى بلدةٍ أخرى ،

أصل مخه فيه والعياذ بالله ، وأمه هبلة بنت هبلة .

ابريل ١٩٨٢

○○○



عن الدود والشرانق والموت



الدودة:

كان المطر ينزل شديدا ، وكنا نجرى ، وقعنا عند ملامسة أحذيتنا للأرض الموحلة ، قمنا بعد أن لطخ ملابسنا . قال "محروس" : يا مطرة رخى رخى ، على قرعة بنت أختى ، بنت أختى قرعة قرعة أخدها الديب وطلع يجرى . جرى "محروس" ينظر إلى المطر النازل من السماء وقد أغمض عينيه ، جريت خلفه ، أمسكت طرف جلبابه ، قلت :

توت ، توت . أكمل "محروس" : لف بيها حارة حارة بالطبلة والزمارة ، يا مطرة رخى رخى ، ضحك "محروس" ودمعت عيناه ضحكت ولكنى وقعت ، قمت وأخذت أنظر إلى ملابسى ، كان الوحل يملؤها ، يدى أيضاً كانت مليئة بالوحل ، لو أننى رجعت الآن لضربتنى أمى . أخذت أدعك عينى حتى احمرتا مسحت إصبعى مما علق به من وحل، غمسته فى فمى ، مررت به على عينى ، من يرانى الآن يجدنى أبكى، دخلت المنزل ، صعدت على أطراف أصابعى ، لمحتنى أمى ، سألتنى ماذا حدث . نظرت إليها ، رسمت تكشيرة كبيرة على وجهى ، أردت أن ألفت نظرها لما يعلق بعينى من دموع ، اقتربت منها ، انت بتعيط ؟ . أخذت تكشيرتى تزداد ، تكلمت فظهر صوتى مبحوحا . ضربنى عيل فى الشارع وجرى . أخذت أمى تخلع جلبابى ، طبطبت على ظهرى : إياك تتخانق مرة تانية . مسحت عينى من أثر الدموع .

الأكل جاهز ، روح إغسل وشك . اتجهت إلى الحمام وأنا أضحك فى سرى .

كنت آكل ويد أمى تلعب فى شعرى ، قال أبى انه قديما ، عندما كان

صغيرا مثلى ، كان يقوم بشراء الدود وتربيته ، قال انها تفرز نسيجاً يسمى بالحرير الطبيعى ، وكان يكسب من هذه الهواية .. قلت لأبى أن هناك رجلا يقف بعربة كارو على باب المدرسة يبيع عليها دود القز، وقلت أن منظرها يخيفنى وأنها تأكل ورق التوت بفمها الصغير وأنه يتحول فى بطنها إلى "زبل" .

عندما نظر إلىّ أبى فى دهشة كيف عرفت عن الدود كل هذه المعلومات أوضحت له أننى أقف لأشاهد العربة والدود كل يوم .

مددت يدى للرجل بقرش، أخذه وقال لى : دكر ولا نتاية ؟ لم أفهم ماذا يقصد بذكر أم نتاية ، قلت نتاية . أحضر الرجل صندوق سجاير كبيراً فارغاً وضع فيه الدودة "النتاية" وضع بجانبها بعض أوراق التوت الطرية ، قررت أن تكون هوايتى تربية الدود ، صرحت بهذه الرغبة لأمى ، سوف تفرز حريرا طبيعيا ، من الممكن أن أبيعه كما كان يفعل أبى ، أخذت أبحث فى "الحتة" عن شجرة توت ، وجدتها على جانب الترعة عند طابق الديابة ، تسلقت الشجرة ، ثنيت غصنا كبيرا يمتلئ بالورق ، كان الغصن طريا ، أخذت أثنيه يمينا وشمالا ، كسرته ، قمت بتنظيف صندوق السجائر من الورق الناشف ووضعت ورقا طريا، راقبتها وهى تأكل الورق فى شراهة، كانت سعيدة ، وكان جسدها يقصر ويطول - وترقص ثنيت غطاء الصندوق عليها ، وضعتها على المكتب قلت : سوف أشترى أكثر من واحدة ، قد أشترى ذكرا أيضاً .. فكرت أن أسأل الرجل ما الأحسن ، الذكر أم النتاية ، ولكن تذكرت أن أبى يعرف الكثير فقررت أن أسأل أبى .

الشرنقة:

أمي كانت نائمة ، كان أبي وناس كثيرون بجانبها ، وكنت أضع يدى على صدر أمي الذى يعلو ويهبط أراد الناس أن يأخذونى بعيدا ولكنها قالت : اتركوه فتركونى .. نظرت إلى أمي ونظرت أمي إلىّ ، جاء الطبيب بحقيبته السوداء، وأخذ يجس أمي بسماعته وينقر بأصابعه على ظهر يده ، ثم أنه خرج، خرج أبي وراءه.

وراء أبي خرجت ، نظر أبي إلى الدكتور - نظرت إلى أبي ، قال : يلزمها غسيل كلوى . قال أشياء أخرى لم أستطع فهمها ، قسم الكلى الصناعية ، عملية زرع كلى . قال أبي وأشار بيده :العين بصيرة واليد.. هز الرجل كتفيه وكتب فى ورقة أعطاها أبي ، أبي عيناه تدمعان ، جلس على الكنبة ووضع يده على رأسه ، أسند رأسه بيده ، جريت حيث ترقد أمي ، الوجوه السود المحيطة بها ، إندفعت إلى السرير ، نمت بجوارها ، إحتضنتها بذراعي، قبلتها فى عينيها ، كانت عينا أمي تبكيان ، بكيت ، قال عمى : الجلسة الواحدة تتكلف مائة وخمسين جنيها .

كان أبي ينظر إلى الأرض ، ورفع وجهه ونظر إلى عمى، خبط كفيه : والعمل ؟ تلفت عمى حوله ، كان صوته ضعيفا : العمل عمل ربنا ، يتولاها برحمته ، عملنا ما علينا والباقى على ربنا . قال أبي : قصدك. نسيبها لحد ما .

تنحنح عمى وكح وبصق على الأرض : أنا شخصياً لا أحتكم على مليم ، مانت عارف البير و ..

أجيب منين بس يا ربى . دار أبي بعينيه فى الحجرة الضيقة ، نظر إلى السقف الملىء بالبياض المعلق والذى يقع على رؤوسنا : يا رب انت

عليك جبر الخواطر ، تجبر بخاطرها وتشفيها . قلت : يا رب تجبر وتشفى أمى. طبطب أبى على ظهرى ،مسح يده فى شعرى ، ضمنى إلى صدره . يا رب يا بنى يا رب .

كانت الدودة قد كفت عن الحركة بعد أن نخرت فى الأبواب والشبابيك ، وأخذت تنخر كل ما تجده من خشب داخل المنزل ، لم تبق على شئ وقد شمل التلف كل الأشياء الخشبية ، أحضرت لها أوراق التوت الخضراء الطرية ووضعتها فى الصندوق فلم تأكلها ، لم ترقص كما كانت تفعل من قبل قال أبى انها دخلت طور الشرنقة ، كانت الأيام تمر بطيئة وكنت حزينا على الدودة ، وقلت أنها سوف تموت من قلة الأكل، امتلأ الصندوق خيوطا بيضاء تشبه حبة الفول السودانى وقد اختفت الدودة تماما .

قال أبى : إذا أردت أن تجنى حريرا طبيعيا لابد أن تضع الشرنقة فى ماء ساخن .

قلت لأبى أنها سوف تموت لو وضعتها فى ماء مغلى . قال لابد أن تموت وإلا تحولت إلى فراشة بعد أربعين ليلة تشق الشرنقة وتخرج إلى الهواء ، بذلك يضيع الحرير ولا أكسب شيئا . قلت سوف أضعه فى الماء، وقلت سوف أبيع الحرير وأعطى ثمنه لأبى حتى تشفى أمى .

كانت الليلة التاسعة والثلاثون من دخول الدودة الشرنقة ، قلت سوف أضعها فى ماء مغلى عند عودتى من المدرسة . عدت من المدرسة مبكرا، صعدت درجات السلم ، ركبت الدرابزين ونزلت عليه ثم صعدت مرة أخرى ، كان هناك ناس كثيرون ، دخلت وكانت أمى نائمة ، الوجوه السوداء المرتدية سوادا ، تسللت إلى أن جلست بجانبها على السرير ، كان شخيرها يرتفع، مغمضة العينين، أخذت يديها فى يدى ، قبلتهما،

بعد لحظات إنفجرت إحدى المتشحات بالسواد باكية ، تعالت أصوات السواد وكن يغنين : يا صغيرة مال السرير بيكى، مال السرير كسر عناديكى . وكنت أجلس ووجدت نفسى أرتفع فى يد أبى ، نظرت إلى أمى ، مغمضة العينين كانت أمى ، لم أسمع شخيرها ، مزمومة الشفتين كانت أمى ، ولم يكن صدرها يعلو ويهبط ، ملأ الصوات البيت وكانت هناك إمرأة تغنى وتلطم الخد اليمين ، وتغنى وتلطم الخد الشمال :

يا صغيرة يا أم البدل ألوان ، عدمك خسارة يا شباب صغار .

ضمنى أبى إلى صدره فشعرت بشئ رطب يبلل وجهى ، رأيت أبى ينهنه قلت : أنا ها أبيع الحرير . غمغم : إنا لله وإنا إليه راجعون . تخلصت من حضن أبى . جريت حيث أضع صندوق الدود ، جلست بجانبه ، فتحته ، إنطلق شئ من الصندوق وطار ، لم أتبين ملامحه ونظرت إلى الصندوق ، كانت الشرنقة مشقوقة نصفين ولم تكن الدودة بداخلها ، بحثت عنها فلم أجدها .

إذا تحولت الدودة إلى فراشة فقد ضاع الحرير غضبت غضباً شديداً ، كنت سوف أبيع الحرير وأعطى الثمن لأبى فتشفى أمى ، بكيت ، جريت إلى أبى ، أبى كان يبكى وكنت أريد أن أقول له ولكنى بكيت ضمنى إلى صدره ، تعالت أصوات النسوة الملتفات حول أمى التى كانت تنام وكنت أرى ضحكتها وهى تنظر بطرفى عينيها ولكنى أخذت أنصت لصوت المرأة التى كانت تغنى :

أم الولاد مالت وعدلوها ، ولادها زى الحمام جوها ياموت لا تاخد حبيبتنا ، خللى الحبيبة لاجل عازتنا، قلت لأبى الذى كان يبكى : الدودة طارت يا بويا . هربت .

نظر إلىّ أبى ،كانت دموعه قد ساحت على وجهى وإستقرت على

شفتى فذقت طعم الملح . قال أبى :

العوض على الله .

بصقت تحت رجلى وفعصتها بالجزمة فى البلاط قلت : العوض على الله ، بكيت .

١٩٨٣

○ ○ ○

المواجهة



ذات ليلة ، دخل علينا أبى يحمل في يده قطة كبيرة .

قال هى من النوع الرومى . أعجبتنى القطة وكنت قد عجبت القطة ، أخذت تتمسح بى وكنت أضربها ، ولكنى قبلتها لأنها كانت تحبنى . قال أبى أن القطط ملائكة . سألت أبى ما معنى ملائكة ؟ ونظرت إلى أمى التى كانت تنظر إلىّ بجانب عينيها فخفت .

إياك تضربها لاحسن يأذوك

نظرت إلى أبى متسائلا : مين دول اللى يأذونى ؟

طبطب أبى على ظهرى ونظر إلى أمى : يا شيخه الولد لسه صغير على الحاجات دى ، أحسن يخاف . هل الملائكة تخيف ؟ لم أقل لأبى حتى لا يغضب ويطرد القطة .

كنت نائما فى حضن أبى ، إنتقل أبى إلى حضن أمى ، رقدت القطة فى حضنى . تحسست جسد القطة كان دافئا وكان شعرها ناعما طريا ، نمت ورجل القطة فوق رقبتى ويدى فوق ظهرها ، صحوت فجأة على صوت فى الحجرة ، تلفت حولى ، لم أر شيئا ، نظرت إلى القط ، عيناه تبرقان ، هززته ، كان نائما ، وكانت عيناه مفتوحتين ، سمعت الصوت مرة أخرى ، كان صوت القط .

أبى "يشخر" دائما ، كان القط يشخر مثل أبى ولم أكن أشخر والقط لا يريد أن يسكت ولا أعرف كيف أنام ، ضربت القط ، ضحكت من منظره وهو يقوم مفزوعا ، وقف على رجليه تقوس ظهره وطوح بيديه الاماميتين ورجع برجليه إلى الخلف ، أردت أن ألاعبه فامسكت شاربه، زعق فى وجهى وبانت أسنانه ،جذبت شاربه ، رفع يده وضرب بها يدى ، نظرت إلى يدى وصرخت ، كان الدم يغمر يدى ولحس القط يده ،ضربته

بيدى المليئة بالدماء فضربنى بيده التى كان يلحسها ، صرخت ولم يصرخ القط ، جريت إلى الباب وفتحته ، كان القط مقوس الظهر ممدود اليدين والقدمين ، عيناه تلمعان ، نظرت إلى عينيه فخفت ، قلت : يمكن القط ده ملاك !! جريت إلى الحجرة الأخرى . كانت لحجرة مضاءة ، وكنت أرقد فى حضن أبى ، أبى يرقد فى حضن أمى ، وأمى ترقد فى حضن أبى ، وأنا أرقد فى حضن القط ، والقط ير ... دفعت الباب فلم ينفتح وكان الظلام شديدا خارج حجرة أبى وأمى ، خبطت على الباب ولم يفتح أحد ، خبطت مرة ومرة ومرات كثيرة ولم يفتح أبى ، لم تفتح أمى، صرخت ولم يسمعنى أحدا ، نظرت ورائى ، كان القط يتمطى وكان يلحس جسده ، مد يديه وقدميه ، ظهره قد تكور ، نظرت إلى عينيه وكان ينظر إلىّ فى غضب ، عيناه تلمعان فى الظلام ، خفت فصرخت ، خبطت على الباب مرة أخرى ، جلست على الأرض ، كان يهم بالقفز ، صرخت كان القط يصرخ ، أنا مش خايف - كنت خائفاً - أنا ها أضربك . يداه وقدماه ممدودتان ، يداى وقدماى ممدودتان ، عيناه تلمعان، عيناى لا تلمعان ، صرخت ، كان القط يصرخ - أنا مش خايف منك . تقدمت منه وكنت أمسك فى يدى "بالمقشة" ، أخذ القط يتراجع وأخذت أتقدم وقلت سوف يأتى أبى وسوف أقول له أن يطردك يا قط ، أنا مش باحبك .

رفعت المقشة فى يدى ، لم يكن القط مقوس الظهر ، ولم تكن يداه وقدماه ممدودتين ،

كان القط يتراجع ، وكنت أتقدم .

مايو ١٩٨٢

○ ○ ○

النحلـة



تريك - تراك

زعقت للولد "شعبان" ولد الحاج "عبد السميع" :

تريك .

رد على الولد "شعبان" ولد الحاج "عبد السميع" أخو الضابط "عبد الرازق" : تراك .

قلت وأنا أمد يدى بالعصفور الخشب : عفريت. زعق وهو يرمى جزعه للأمام : بعو .

طوحت العصفور الخشب بكل قوتى ، وضعت قطعة الخشب الأخرى على الطوبتين ، انتظرت الولد "شعبان" حتى يرمى العصفور الخشب ، لكنه رماه و لم يصب الخشبة على الطوبتين فأخذت أضرب سن العصفور بقطعة الخشب الطويلة ينط ويذهب بعيدا ، أضربه ، ينط ويذهب بعيدا ، ينط وأضربه ، يذهب بعيدا ، حتى زهقت فقلت للولد "شعبان" أخو الولد سمعة : أنا زهقت ، مش لاعب تانى . رميت قطعة الخشب ورميت العصفور وطلعت بيتنا المواجه لبيت الولد "شعبان" صاحبى الذى أكلت معه الفول الحراتى الذى نسرقه من أول الحارة ، ودخنا أعقاب السجائر فأصبنا بالكحة وحريق فى الصدر ، وقبلنا البنت "توحة" ذات الثديين الكبيرين جدا والحبوب التى تملأ الوجه ، ضربتنى أمى وقالت لا تفعل هذا مرة ثانية ، ولكنى قلت أن البنت "توحة" هى التى قبلتنى وأخذت تفعص جسدى بيديها وجسدها . قالت أمى : إياك تعمل كده تانى ،وإلا أخلى العفريت ياكلك .

قلت لأمى أننى رأيت العفريت أبو رجل مسلوخة ولعبت معه .

ضحكت أمى وقبلتنى . ثم أنها أعطتنى قرشا ، نزلت الشارع مرة

ثانية لأشترى "حلبسة " .

كان الولد "شعبان" يلعب هو والولد "سعيد" قورة وكنا نسميه "سعيد القرص" فيمسك زلطة ويجرى وراءنا ، كانا يلعبان "الناكية" ، وكان "شعبان" يلبس بيجامة جديدة ، قلت أن أبى سوف يحضر لى بيجامة جديدة وحذاء يلمع ، وأردت أن ألعب "الناكيه" ولم يكن معى "جعران" ولا "قيطان" فقلت : تيجو يا عيال نلعب تريك تراك .

هز "شعبان" كتفيه وغمز سعيد قورة بعينه فدخلت البيت وأنا أبكى.

كان أبى يضرب أمى و يزعق ، وكانت أمى تعيط وتزعق ، فزعقت : أنا عايز قرش . زعق ابى وزعقت أمى فجريت ، وكان "أستك" بنطلون البيجامة ينقطع وأقع وأعيط . قلت لـ"شعبان" : إدينى الجعران ألعب حبة . لعب "شعبان" وأخرج لسانه الأحمر الطويل الذى يتحرك مثل الثعبان الصغير الذى نزل من بطنى حين أعطتنى أمى شربة ملح ، و"سعيد القرص "وضع جعرانه على الأرض داخل الدائرة .

إدينى ألعب شويه يا "سعيد" وخد الجعران تانى .

هز "سعيد" كتفيه وحاجبيه وقال : توء .. توء ماليش دعوة .

قال "شعبان" : أنا معايا قرش . ودخل أبوه البيت يحمل فى يده بطيخة كبيرة جدا فدخل معه ، عاد شعبان يحمل شقة بطيخ كبيرة حمراء قلت : أنا لما أجيب حاجة أديلك ، مش أنا بأديلك يا شعب . قال الولد "شعبان" صاحبى أخو الضابط "عبد الرازق" : بس انتو ما عندكوش بطيخ ، ولا أى حاجة خالص .

قلت لـ"شعبان" وكان الولد "سعيد القرص" واقفا :

دا أبويا جاب حاجات كتيرة .

نظر شعبان إلىّ ولعّب حاجبيه ، قضم من شقة البطيخ ومضغها وقال:

الله ، حلوه قوى . أكملت : وكمان ها يجيب لى بيجامة جديدة حمراء وجزمة تلمع .

ضحك الولد شعبان ، قضم ، مضغ ، قال : الله . مسح النازل من فمه بظهر يده وقال : انت بيجامتك مهر بدة وقديمة ، أبوك بيضحك عليك . إقتربت منه ، أمسكته من ياقة بيجامته الحمراء الجديدة :

أبويا مش بيضحك عليا وها يجيب لى بيجامة حمراء وجزمة جديدة تلمع .. ضربت الولد شعبان صاحبى على خده . فلم تتوقف أسنانه عن مضغ البطيخ ، أمسكت به ودفعته بعيدا ولكنه لم يقع ، لم تقع شقة البطيخ ، قال :

مش هاتلعب معانا الناكية ، أنا مخاصمك .

قلت وأنا أبصق على إصبعى الصغير : طظ، مشيت .

الناكية:

مرضت أمى وماتت ، إنقلب بيتنا صواتا وناس كثيرين ، ونساء يرتدين السواد ، أيضاً كراسى كثيرة جدا ، ركبت العربة السوداء وطبطب عمى "حسين" على ظهرى بكف يده الكبيرة الناشفة ، ومسحت خالتى أم"شعبان" صاحبى يدها فى شعرى .

دخلنا الترب وكنا لمة كبيرة ، وكانت النسوة يزعقن ويصوتن ويضربن على الخدود بأكفهن . جلست بجانب شجرة التوت الحمراء المواجهة للتربة التى سوف تنام فيها أمى ، كانت دودة صغيرة تزحف على الأرض زعقت على أبى :

شوف يابا الدودة الخضرا دى . لم يلتفت إلىّ أحد وكانوا يحفرون

فأخذت أتتبعها حتى اختفت فى أحد الشقوق ، المرة الأولى التى أرى فيها دودة خضراء، عند دخولنا المنزل قلت لأبى :إحنا سيبنا أمى هناك لوحدها .

نظر إلىّ أبى ، نظر أبى إلى الناس، نظر الناس إلىّ . طبطب على ظهرى ، قلت له : إدينى قرش يابا .

أخرج أبى من أنفه هواء كثيرا وأعطانى قرشا أخذته وخرجت ، كان العيال يلعبون الناكية ، لم يكن معى جعران . قال "شعبان" :

تعالى إلعب معانا ، خد إلعب بجعرانى شوية.

قال "سعيد القرص" : خد العب بجعرانى أنا ، هى أمك مش ماتت !!

قلت : أيوه ماتت ، سبناها فى الترب لوحدها وجينا .

أخرجت القرش وقلت أننى ذاهب لأشترى جعرانا وقيطانا فذهبوا معى.

إشتريت واحدا وكان سنه طويلا ، قلت سوف ألعب معهم وأغلبهم ، أغلب "سعيد القرص" وأكسر له جعرانه وأغلب "شعبان" صاحبى وأفلق جعرانه نصفين بسن جعرانى "الفولى" .

بدأ اللعب ، لففت القيطان على الجعران ، أمسكت طرف القيطان بين أصابعى، طوحت به فنزل على الأرض دائرا ، فردت أصابعى على الأرض ، التقطت الجعران على كفى وكان يدور ، فوق دائرة الناكية تركته يسقط، جرجرته بالقيطان خارج الدائرة .. مرت ساعة ودخل "شعبان" البيت وعاد يحمل "سندوتشاً" .

مرت ساعة أخرى . ولم يقع أحد فى الدائرة ، ذهب "سعيد القرص" وعاد يحمل لقمة عليها جبنة . كنت أشعر بالجوع ولكنى لم أتحرك ، قلت لـ"سعيد" :إدينى لقمة عليها جبنه يا "سعيد" . هز "سعيد" كتفيه :

توه، توه يعنى أنت بتدينى حاجة ؟

مش ها أديلك .

قلت : بس أنا أمى ماتت ورحنا الترب وسيبناها هناك .

وأنا مالى ، ما ليش دعوة - قال "سعيد" :

تركت العيال ودخلت البيت ، كان أبى جالسا وناس كثيرون ولم يكن هناك أكل ، قلت لأبى : أنا جعان يا بويا .

نظر إلىّ أبى فبانت عينه اليمين بيضاء ، خفت .

روح العب دلوقت .

بس أنا جعان قوى يا بويا .

خرجت إلى العيال ، كانوا يأكلون ، قلت : مين يراهنى اللى أفلق له جعرانه يدينى ايه ؟ . رد "شعبان" نديلك قرش . وقال "سعيد القرص":

تبقى جدع وراجل .

اللى أفلق له جعرانه يدينى لقمة .

نظر إلىّ العيال وضحكوا . القرش أحسن يا عبيط

قلت : بس أنا جعان .

إذا كسرت الجعران أديلك لقمة عليها جبنة - قال "سعيد" :

رد "شعبان " : وأنا أديلك نص الرغيف .

إلتف العيال ، تكونت دائرة كبيرة ، وكان العيال يضحكون وأنا ألعب وقلت لـ"شعبان" صاحبى ألا يأكل من الرغيف حتى يعطينى النصف كما قال .

نزل الجعران على الأرض يزن ويدور ، زن مثل النحلة التى قرصتنى فى عينى ووضعت أمى مكان القرصة لبنا من صدرها حتى يبرد الوجع ، فى المرة الأولى نقر السن جسم الجعران الموضوع داخل الدائرة ، قلت أننى

سوف أفلقه فى المرة الثانية ، لكنه لم يفلق وضحك العيال ، وقال "شعبان" أنه سوف يأكل الرغيف أخذت أضرب جعران "شعبان" بسن جعرانى ، وأخذ يأكل الرغيف حتى انتهى منه ، ضحك العيال وقالوا : المره أهو أهو ، المره أهو ، أهو ، ولكنى قلت : أنا راجل غصب عنكم يا خويا انت وهوه . وكنت داخل الدائرة فدفعت الولد "سعيد" بيدى ، وخرجت قذفت الجعران الذى فى يدى فوق حجر فانكسر ، دخلت البيت ، كان أبى وخالتى عايدة زوجة عمى "صالح" جارنا يلعبان وكان أبى يضحك ويقرص خالتى "عايدة" زوجة عمى صالح" ، وهى تضحك وتقرص أبى .

قال أبى : خش إتخمد فى سريرك يا وش الفقر .

دخلت ، نمت على سريرى، دفنت رأسى تحت اللحاف .

كانت خالتى "عايدة" زوجة عمى "صالح" تضحك ضحكة طويلة ، وكنت أنام ، وكانت شقة البطيخ الحمراء الكبيرة ، الكبيرة جدا ، ياه .. أخذت أتسلقها ، أطلع فوق ، فوق حتى جلست فوقها ودلدلت رجلى ، أخرجت سكينا كبيرة جدا ، أخذت أقطع وأمضغ وأقول الله، أقطع ، أمضغ ، الله .

كما كان يفعل الولد "شعبان" صاحبى أخو الولد سمعه .

أغسطس ١٩٨٣

○ ○ ○

حكاية البنت "زقلط"



لو سمعت الحكاية من البداية لصدقت ما أقول . فان العفريت لما طلع لى ، وكان شكله شكل حمار ، وقال لى دلنّى على الطريق . فعرفت أنه عفريت حمار وأنه كشف نفسه بنفسه ، فقلت أضحك عليه ، وقلت له أدلك بشرط أركب فوقك ، وقبل أن أركب أغمدت مسمارا فى مؤخرته ، فنهق وشهق ورفس الأرض بقدمه ومرغ جسمه فى التراب وأخذ ينط ، وكنت أضحك ، وقال ارحمنى يا سيدى وانزع المسمار وأنا أفعل ما تطلب ، فلما تيقنت أن العفريت أصبح حماراً بحق وحقيق ، وأنه لن يتحول إلى عفريت إلا إذا نزعت المسمار - ركبته ، وفوق ظهره هززت رجلى ، وعلى قفاه ضربته ، ثم اننى كلمته وقلت : حا يا حمار .

فشهق ونهق ورفس وضرب الهواء ببوزه وقال : حاضر يا سيدى ، إرحمنى وشيل المسمار . ولما وصلت حد البيت قفزت إلى الأرض ، سقت الحمار حتى باب البيت ، واربت الباب وأنا خلفه ، أدرت الحمار حتى أصبح ظهره فى وشى ، مددت يدى ونزعت المسمار من تحت ذيله ، بسرعة أغلقت الباب حتى لا يتسرب ريحه إلى بيتنا فيحرقه .

ضحكت البنت "زقلط" الطويلة ذات الضفائر الطويلة والضحكة الطويلة التى تشبه صوت الضفدعة .

قالت خالتى "جازية" إنها عانس وبايرة وأنها مثل البيت الوقف . وكنت أجلس بجانب البنت "زقلط" فتقوم وتبوسنى فى فمى بوسة طويلة فأتضايق وأقول :

ريحة حنكك وحشة يا "زقلط" . فتقف وتضربنى على قفاى بكفها الكبير فتفرقع وأعيط . وأحلف انى لن ألعب معها مرة ثانية ، و لكن

البنت "زقلط" التى تسكن أمام بيتنا تجىء عندنا وتقول : ما تزعلش منى ومش ها أضربك . فأطلب منها ألا تبوسنى فى فمى مرة ثانية لأن ريحته وحشة " .

فتقول : مش ها أبوسك من حنكك ، أبوسك من خدك . فأوافق أن تبوسنى من خدى، وتبوسنى ولسانها يلحس خدى فأقرف وأتضايق وأقول: انتى مقرفة يا "زقلط" . فتضربنى على خدى وعلى قفاى بيدها الكبيرة الثقيلة الناشفة فتفرقع وأعيط ، وعندما أقول لأمى أن البنت "زقلط" تضربنى تقول : ما تلعبش معاها تانى .

***

فى بيتنا تسكن خالتى "أم نبيل" زوجة أبو "نبيل" الترزى ، والذى لا يرجع البيت إلا فى آخر الليل ، فتأخذنا ونجلس على مصطبة السلم وتحكى بالليل والدنيا ظلام ، وأنا أخاف مما تحكيه "أم نبيل" ، فانها لما رجعت من الشارع ، وجدت الباب مفتوحا وكانت أغلقته قبل أن تمشى، ولم تأخذ فى بالها ودخلت الشقة ، لكنها وجدت الأرانب تملأ الشقة عن آخرها فقالت من أين أتت الأرانب ؛ وعندما نظرت وجدت عيون الأرانب تطق بالشرر ، فأيقنت أنها عفاريت عاملة أرانب ، رمت ريقها فى عبها وقرأت الكرسى فأخذوا يحترقون وهم يصوتون ويقولون : الرحمة الرحمة - وهى تقرأ ، وتقرأ حتى أحرقتهم جميعا .

وتلمسنى "زقلط" فأفزع وأرتعد فتقول لى "أم نبيل" :

اسم الله عليك يا خويا ، الشر بره وبعيد .

أقول وأنا أتلفت حولى : هى العفاريت بتنقلب أرانب ؟ ازاى أعرفهم لو طلعوا لى ؟

تقول لى خالتى "أم نبيل" : ما بيطلعوش إلا إذا كنت وحدك .

وترد البنت "زقلط" : أنا معاك ومش ها يطلعوا لنا .

بس إنتى بتبوسينى وأنا باقرف يا ختى .

فيحمر وجهها وتقرصنى وتنظر اليها "أم نبيل" وتضحك وتقول لها : ياشقية ، ربنا يعدلها لك ويرزقك بابن الحلال . وتنظر "زقلط" إلى الأرض فى كسوف شديد .

ولما أطلع بيتنا ، ويطفئ أبى نور الشقة، أخاف وتأخذنى أمى فى حضنها وتقول :

من إيه بتخاف ؟ . فأقول : من العفاريت الأرانب .

وترد أمى وهى تضحك :

ما عفريت إلا بنى آدم ، نام وما تخافشى ، إنت معايا . فالتصق بها والدنيا حر ، والعرق البارد يملأ وجهى ، ولكنى ألتصق حتى أننى لا أستطيع أخذ نفسى وأحس "بخروشة" فأكتم نفسى حتى أسمع جيدا صوت العفاريت وهم يتحولون إلى أرانب ، إلى أن أنام .

كان الرجل يعلق "الكهارب" على بيتنا وفى الشارع ، وكانت أمى تزغرد ونساء الشارع وهن يفركن "الكسكسى" فى الطشت الكبير . وكنت أقف بجانب البنت "زقلط" وقالت خالتى "أم نادية" : ربنا يعدلها لك "يا زقلط" يا بنتى يا رب . وانكسفت "زقلط" وأدارت وجهها للناحية الأخرى وقرصتنى فى وركى وقالت :

تعالى نزغرت . قلت لها أننى لا أعرف ، ولكنها وضعت يدها على فمها وأخذ لسانها يطلع وينزل ، وكانت الزغرودة تخرج صواتا . قلت : انتى رخره ما بتعرفيش تزغرتى يا ختى . أخذتنى من يدى ومشينا إلى شارع عشرة ، وكان الزرع طالع كبير جدا والأرض مروية ، والدنيا كحل. قلت :أنا خايف ياختى .

طبطبت على ظهرى وقالت : ما تخافش ، أنا معاك وكمان أوعى تخاف أحسن يطلعولك . ودخلنا الزرع ، وأخذت تبحث عن ضفدعة حتى وجدتها وكانت كبيرة جدا ، أخذت تنظر إلينا بعينيها الكبيرتين وتبلع ريقها وتنط . جرينا خلفها ونحن ننط ونحلق عليها إلى أن أمسكناها . قلبتها "زقلط" فى كفها فبانت بطنها البيضاء الطرية ، قالت لى : إلحس. قلت : أنا خايف، وكمان قرفان يا ختى ، ويمكن كمان تكون ضفدعة عفريت . ضحكت "زقلط" وقالت ان العفاريت ينقلبون أرانب وحميرا فقط وأنهم لا يتحولون ضفادع أبدا .

قلت لها :إلحسى أنت الأول . فلحست بطنها الأبيض بلسانها الأحمر الكبير ، وكانت تلحس وتبلع ريقها ، فأخذت ألحس أنا أيضاً ، ولكنى رميت ريقى على الأرض . إبلع ريقك عشان تعرف تزغرت . وكنت أحس بالقرف، ولكن البنت "زقلط" لفت رجلها حول رجلى فوقعت على الزرع ووقعت فوقى .

وقالت : يا لله نلعب عريس وعروسة .

قلت : لا وكنت خائفا أن تضربنى زقلط .

فقلت : نلعب فى البيت عريس وعروسة .

قالت : نلعب هنا يا بلاش .

قلت : بلاش . ولكنها أخذت تبوسنى فى خدى وكانت المياه تملأ الأرض فملأ الطين هدومى ، وأخذت هى تفك أزرار بنطلونى .

فقلت : لو جت العفاريت دلوقت هايقلبونا حمير أو أرانب ومش ها نعرف نرجع بنى آدمين تانى .

وقالت : يا له بوسنى . فبوستها ، وأخذت تحك فخذيها برجلى وكانت تصرخ .

فقلت : مالك يا "زقلط" ؟ . لكنها لم تتكلم واتسعت عيناها ولمعتا ثم أغمضتهما فجأة . حين قامت من فوقى قالت : إوعى تقول لحد على اللى حصل ، وإلا هاضربك .

ثم أعطتنى قرشا وقبلتنى . ولكن الطين كان يملأ ملابسى فقالت : قول لأمك إنك وقعت وأنا هاغسلها لك .

دخلنا البيت ، كانت أختى تجلس جنب عريسها ، أخذت أتسحب على السلم فلم يرنى أحد ، غيرت هدومى ووقفت بجانب أختى التى كانت تضحك وكان عريسها يوشوشها فى أذنها ، "زقلط" كانت تقف جنب أختى فقرصتها فى ركبتها وضحكت .

قالت أختى :إن شاء الله تحَصِّلِينى وتلاقى ابن الحلال يا "زقلط" يارب .

ردت "زقلط" : أنا أكبر منك بعشر سنين .

يا حول الله ، البنت القطر فاتها . همست خالتى "أم سعيد" وكنت أقف بجانب "زقلط" .

فقلت : أنا ها أتجوزك يا "زقلط" ، ما تخافيش .

ونظرت إلىّ وقالت : يا ريتك كبير شويه .

فقلت أننى كبير ، وأننى ألعب معها عريسا وعروسة وسوف أتزوجها لأن أحداً لم يتزوجها . ووقفت زعلانة فقلت : يا لله بينا نلعب عريس وعروسة .

فنظرت إلى بجانب عينها الشمال ووضعت إصبعها الطويل على فمها و قالت : اسكت . فسكت .

وقالت : أخرج استنانى بره . فخرجت ، وكانت أختى تضحك وعريسها يوشوشها ، وأمى تضحك وتزغرد ، وأبى يضحك ، وكان

الجميع يضحكون ، والبنت "فردوس" تغنى : البنت حبت الجزار ، والجزار حبها ، ساب الجزارة وراح لها ، وضربها بحق السلمون .

وجاءت "زقلط" وأمسكتنى من يدى ، واتجهنا إلى شارع عشرة ، وكانت الأرض مروية ، والزرع طالع كبيرا جدا ، والدنيا كحل ، ولم نكن نبحث عن ضفادع .

سبتمبر ١٩٨٣

○ ○ ○

الدفانــة



أقول لأمى وأنا "أنهج" أمى ، أمى ، إدينى قرش يامه .

تنظر إلىّ أمى ، عيناها حمروان ، تقول : أنا مش لسه مدياك قرش حالا!! إنت ما بتشبعش أبدا .

ما هو ، ما هو ، ما هو وقع منى وأنا بالعب فى الحارة .

تضربنى أمى "باللكمية" فوق ظهرى فأقع وأعيط ، ولكنى أقف وأجرى فيلاحقنى صوت أمى ويسبقنى : روح دور عليه يا خايب يا بن الخايبين إن شالله تقرصك دفانة يا رب . أبكى .

أخرج إلى الساحة التى يلعب فيها العيال ، نلعب "الأستغماية" ، "كلوا بامية" ، أجرى ، أختبئ وراء صخرة كبيرة ، تجرى العيال ولكنهم لا يبحثون عنى ،أخرج من وراء الصخرة ، لا أجد العيال ، ولكنى أجد "بهية" ، أمسك ذراعها وأقول : تيجى يا بت نلعب عريس وعروسة . تضحك "بهية" فتظهر أسنانها الصفراء المسوسة ، تمسح النازل من أنفها بكم جلبابها الأزرق المرقع ، تقول: العب أنا العريس ، وأنت العروسة إيه رأيك . تهز "بهية" كتفيها : يا كده يا بلاش لعب . أنظر إلى "بهية" التى كانت تضحك : بس ازاى يا "بهية" العب أنا العروسة وانتى العريس ، دا أبويا عمره ما لعب عروسة وأ مى عمرها ما لعبت عريس . وتصر "بهية" على أن تلعب عريسا وألعب أنا العروس ،.و لكنى أضرب "بهية" وأجرى فتجرى ورائى ولاتلحق بى فتقذفنى بطوبة فأطأطئ رأسى ولا تصيبنى ، وأخرج لها لسانى وأدخل بيتنا .

أقول لأبى وكنا نجلس حول "الطبلية" أنا ضربت البت "بهية" يا بويا . وكان أبى يمضغ فقال من بين أسنانه : وضربتها ليه يا وش الفقر .

- قلت لها تعالى نلعب يا "بهية" أنا وأنت عريس وعروسة ، قالت العب أنا العريس وأنت العروسة .

يضحك أبى فيخرج الطعام من فمه وينزل فى "الصحن، تضحك أمى ويضحك إخواتى ، أقول انتم بتضحكوا ليه .

يضحك الجميع أضحك .

يرد أبى : راجل من ضهر راجل يا واد ، طالع لابوك ، بنت أبو عدس عايزة تخليك حرمة ! والله عشنا وشفنا .

- يعنى إيه حرمه يا با ؟

- إسأل أمك تقولك .

- يعنى إية حرمة يامه ؟

- إنت ما تتعبش أبدا من الكلام على الفاضى والمليان ، دماغنا وجعنا يا أخى .

- يعنى إيه حرمة يا خويا ؟

- يعنى بنت ، عروسة ، واحدة ست .

- "بهية" كانت عاوزانى أعمل حرمه وضربتها وجريت .

يخرج أخى قبل أن أكمل كلامى ،أحس بالزهق ،أخرج، "بهيه" تلعب عريسا وعروس مع عوض ، أقول مين العريس يا عوض ،إنت ولا بهية؟

يضحك عوض ، يزعق فى "بهيه" :

قومى يا حرمه اعملى دورين شاى للرجالة .

تجرى "بهيه" وهى تقول : حاضر يا سى "عوض" عينى .

- "بهية" عايزانى ألعب أنا العروسه وهى تلعب العريس يا "عوض".

- الرجاله هما العرسان يا وله .

يفرك "عوض" الهواء المقارب لأنفه بأصابعه

- أنا مش ها أكلم "بهيـه" يا "عـوض" مرة تانيـه،إنت معـايا ولا معاها .
- "بهية" دلوقت هي الحرمه بتاعتي وأنا مش هاقدر أخاصمها .
- أنا مخاصمك يا "عوض" انت و"بهيه" . ، أمد يدى إلى عوض .
- انت فى أنهو صابع يا "عوض" ، الصغير ولا الكبير .
يمسك "عوض" الاصبع الصغير ، أمسك أنا الاصبع الصغير ، أقربه من فمي وأبصق عليه ، أمشى وأنا غضبان .
كنا بالليل وكنت أنام ، ولكنى سـمـعت أبى يوشـوش أمى : هاتى بوسـه يا وليـه . وكنت أريد أن أتبـول ، ولكنى لم أتحـرك من مكانى ، وقالت أمي العيال لسه صاحيه ، اصبر شويه يا راجل . رد أبى وكان صوته ضعيفاً : تعالى نروح أى أوده تانيه . وكنت أسمع وأكاد أتبول على نفسى ولكنى لم أتحرك وقالت أمى : الأود كلها مليانة عيـال ، اصبر يا راجل شويه لما العيال تنام . ونفخ أبى فى الظلام : فالحه انتى يا ختى عاملة زى الأرنبه ، كل يومين تسلتى عيل ، والنتيـجة الواحد مش عارف ياخد راحته فى بيته . وضحكت أمى ضحكة طويلة ، وكان أبى يلتصق بها ، وتتراجع أمى ، يلتصق أبى ، أقع أنا من فوق السرير، يغطى أبى رأسه باللحاف الذى خرج القطن من كل جوانبه وينام ، تغطى أمى رأسها وتنام ، أبول أنا على نفسى .
يموت أخى ، يموت اناس كثيرون ، وقال أبى ان الكوليرا تحصد الناس حصدا ، وأقول لماذا يموت أخى الذى أحبه وكان يشترى لى الحلوى والفول السودانى المقشر ، وقال الناس اتحد الموت مع الفقر والمرض وحصدوا فى الخلق . ما الفقر ؟ ما المرض ؟ لا أحد يقول لى .
"أصيح فى البنت "بهيه" : فزى قومى بوسى ايد جوزك .

تبوس "بهيه" يدى ورأسى . أقول : من هنا ورايح تسمعى كلامى .

أضرب "عوض" ، وأبى يريد بوسه ، أتلفت فأجدها ، دفانة كبيرة تمشى بالراحة فى الرمال تمتد شوكتها أمامها ، أقول لها: أمى قالت : ان شالله تقرصك دفانه انتى جيتى تقرصينى ؟ هو أنا عملت لك حاجة ، ردى عليا يا دفانه ، انتى مخاصمانى زى "عوض" و"بهيه"، طب يا لله نلعب أنا وانت ، بس نلعب ايه ، آه ، أنا أقول هاتى بوسه وانتى تبعدى، أبويا قال هاتى بوسه وأمى بعدت وأنا وقعت من على السرير ، هاتى بوسه بأه .

آى ، آى كده برضه تقرصينى ، طب أنا مخاصمك وها موتك ، أخذت أصرخ بصوت عال : أنا هاموتك ، أنا هاموتك ، هاموتك .

يقوم أبى ، تقوم أمى ، يقوم اخواتى ، أقول

- أنا قتلت الدفانه لأنها قرصتنى .

- طب نام انخمد لحد الصبح .

- قلت لها ادينى بوسه قرصتنى .

يقول أبى : ..

تقول أمى : ..

يقول إخوتى

أسحب الغطاء فوق وجهى ولا أقول شيئا .

فبراير ١٩٨١

○ ○ ○

الحجاب



شكة - من عين أبو محمود

شكة - من عين أم محمود

شكة - من عين أبوك

من عين أمك

من عين كل من شافك ولا صلى

وكل من لمحك ولا قال بسم الله

يكفيك شر الأزية

وكل عين رضية

وكل يد عفية

يا محسنة يا بنت عزيزة ومحمدين .

***

البنت القاعدة فى المندرة الكبيرة ، مريضة بالداء الذى لا شفاء منه. حطت وفرطحت على السرير ولم تحرك ذراعا ولا رجلا .

كانت تتأوه وتزعق بالصوت الحى : من ينجد العليل يا خلق الله ، النار - يا خلق الله فى جوفى لهيب ، والجسم ما عاد يتحمل .

وقف أبوها على باب المندرة ، وضرب يده فى جيب الصديرى ، وأقسم بالطلاق ثلاث : من يشف ابنتى يأخذ كل مالى . وانحدرت دمعته على خده الأيمن واستقرت على شفته ، إمتصها فأحس بطعم الملح فلطمها على الأرض وأزاح عليها التراب بقدمه .

فى البداية أقول ، إسم الله عليك ، وعلى السامعين :

بعد الصلاة على النبى الزين الذى ملس على الضرع الناشف فسال بين يديه .

أن من يروح ، لا يجئ والملك بهرمان كان زين الملوك الأعاجم ، وكان وزيره شمس النهار لا يطاوله وزير آخر فى طول البلاد وعرضها ، وكان قد رزق ببنت تسمى "فرط الرمان" هى كالرمان حلاوة وطلاوة ،

فهى درة عصرها ما ثقبت ، وجوهرة قصرها . وكما تدور السواقى ، هكذا تدور الدنيا ، وكما يأتى الفرح ، يعقبه الحزن والغم . وشكت "فرط الرمان" من علّة خفية ، وطال المرض وطال ، وفرط الرمان على هذه الحال العجيبة، وما حدث لها من الأمور المحزنة الغريبة ، حتى قام الوزير شمس النهار ونادى فى البلاد طولها وعرضها : يا ناس ، من يشفى ابنتى ونن عينى له نصف فلوسى ، وأتنازل له عن الوزارة، وله جواهرى وقصورى وأزوجه إبنتى ، يا ناس ، لا تأخذكم الدنيا الغرورة كما أخذت من قبلكم ، ومن يفشل فى العلاج فعليه يقع الجزاء . (رفض الوزير شمس النهار أن يبوح بالعقاب ، وهناك ، فوق تلال المدينة البيض ، كانت أسنة الرماح تحمل جماجم لشبان ذوى شعور سوداء ناعمة ، كانوا يحلمون بقصور وجواهر بنت الوزير) .

جاء الشيخ حمبوسة ذو السر الباتع من آخر البلاد . أقام الايام بالليالى يحوقل ويبسمل ويقرأ التعاويذ ويطلق البخور ، أخذ يملس على جسد البنت محسنه بنت محمدين وعزيزة ، يقرأ فى كل جزء من الجسد تعويذة ، أخرج دواة حمراء ، وريشة خضراء وورقة صفراء ، كتب عدة أحجبة طواها مثلثات ، وضع أحدهم تحت المخدة ، الثانى دسه فى صدرها ، الثالث أذابه فى ماء بكر ، وشربت منه عزيزة ومحمدين ، ما تبقى رشت به عتبة الدار ، الأماكن التى كانت تذهب اليها ، قال : إبنتكم يا سادة قد إنعرضت من الجن : ذبح بعض الطيور فوق رأسها واستحمت بالدماء الساخنة ، خطت فوق البخور سبع مرات ، نقشوا

كفيها ومشطى قدميها بالحناء المخلطة بالقَرَدْ . مشى الشيخ حمبوسة بعد أن وعد بالشفاء ، وأن كل شئ كما كان يعود .

من يتحمل الشدة إلا الرجال !!

هكذا يقول الأولون ، ومن يصبر على المحن إلاكم - هكذا نقول نحن.

والوزير شمس النهار شد شعر رأسه من الغيظ، وضرب جبهته بالحائط فانكسر ، لطم عمامته على الأرض ، وأخذ يبكى فى حرقة شديدة لمرض إبنته فرط الرمان ، ونتف لحيته لعجز الحكماء من كل صنف ولون عن مداواتها ، أما ما حدث للتلال البيض ، فانها زرعت بجماجم الفتيان الذين كانوا يحلمون بالملك والزواج السعيد ، لم يبق فى المملكة إلا الكهول والعجائز ، وأجدبت النساء ولم يعدن يحبلن .

إغتم الوزير شمس النهار من أحوال ذلك الزمان الذى إن أعطى بيد أخذ بالأخرى ، ولم يطق فانفجر ومات .

البنت القاعدة فى المندرة الكبيرة لم يكن فى شفائها رجاء . فجأة قامت رمحت . البنت التى قالت أمها عزيزة : وحياة مقصوصى هذا إبنتى ما عاد لنا رجاء فى شفائها . طابت وزغرد أبوها محمدين الفقير من فرحته . قيل لولا حجاب الشيخ حمبوسة ما كانت البنت شفت ورمحت وتزوجت وأنجبت رجال يعمرون بر مصر ، وقيل لا يوجد فى بر مصر اثنان كالشيخ حمبوسة ، ولو كان ، لكانت مصر محروسة ، ولا كان حدث ما حدث ودخلها الجن والعفاريت .

ooo

الوطواط

قيل لم يحدث لأحد من قبل مثل ما حدث ، ملعون هذا الرجل، تلك اللعنة التى يرسلها الله شهبا تمرق كالسهام فتصيب من يشاء ، يوم أصاب قوم نوح أرسل اليهم الطوفان فأغرقهم جميعا إلا من ركب معه ، يوم أنزل على عاد وثمود غضبه فأحرقهم جميعا إلا لوط وأصحابه ، أما قارون فقد خسف به وبداره الأرض، ونَجّا موسى وقومه وغرق فرعون .

"ورأى الرب أن شر الانسان قد كثر فى الأرض ، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم، فحزن الرب أنه عمل الانسان فى الأرض ، وتأسف فى قلبه " .

وقيل أنه فى تلك الليلة التى يؤرخون لها بعدم ظهور القمر ومجموعة النجم القطبى ، وكانت ليلة شؤم ، بدأ فى السير وقد دخل فى رداء الليل وأوغل فى الدخول ، ولم يشعر إلا وشيئا يلتصق بوجهه فيحجب الرؤية عن عينيه ، تنبه إلى نفسه التى كانت بعيدة عنه ، أحس بانغراس مخالب اقشعر منها جسده ، إنتفض ، قيل لم يبال أول الأمر ، ولكن الخطر له أجنحة ، حام ، أز أزيزاً عاليا ، فى منطقة إندلقت فيها حزمة ضوء رأى ، نظر فارتدت النظرات خائفة مشروخة ، نظرة أخرى والتقت العيون ، تحركت يداه دون إرادته ، ارتفعت إلى وجهه أمسكتا بالشئ الملتصق بالوجه ، جذب بشدة ، تحشرج زفيره فى الحنجرة ، جذب مرة أخرى ، إنطلقت الصرخة ، ردد الصوت الصرخة عدة مرات ، رجعت يداه كما كانتا بجانبيه ، قيل أنه أعاد المحاولة عدة مرات ولم يفلح فى إقتلاع هذا الشئ الذى كان يجهل إسمه حتى الآن ، وقيل أن هذا الشئ كان هادئا مستكينا فوق وجهه ، وقد أمسكت مخالبه بالأذنين وإنتشرت

أجنحته فغطت الوجه ، أما عيناه فكانتا تقابلان عينى الوجه ، بل تقعان فى المواجهة، إذا نظر يمينا أو شمالا تحركت العينان المقابلتان فتلتقى أربعة أعين فى آن واحد. ومر الوقت بطيئا ، وأخذ يحدق في العينين الواسعتين الملتصقتين بالوجه ، انخلع قلبه ، رماديتان ، بل سوداوان ، بل .. آه ، تلفت حوله ، منطقة، مهجورة ، ليس فيها صريّخ ابن يومين، استعاذ بالله من شياطينه ، قرأ الكرسى ، تنغرس المخالب حتى النخاع ، العينان الهادئتان حتى الموت ، نسى أين كان ذاهبا ، نسى كل شئ ، أصبح هذا الشئ هو ما يفكر فيه الآن ، لا يعلم أين رآه قبل الآن، لكنه تذكر ، وطواط ، رآه كثيرا ، كمحاولة أخيرة امتدت يداه ، أمسكتا بالجسم الرخو ، جذب ، صرخ الوطواط ، المرة الأولى التى يسمع صراخه ، صرخ هو الآخر، إمتزجت الصرختان، إمتلأ جوف الليل صراخا، تقطر وجهه دماً، أخذ يجر قدميه متوغلا فى الصمت والليل ، حاملا الوطواط فوق وجهه . كانت العينان ترمقانه ، وتدلت أحشاء السماء .

"أوعى يا ولدى من طريقك ، أوعى يا ولدى من غراب البين ، خللى بالك من الوطاوط ، لو لزقت فى وشك مش راح تطلع ، الوطواط يا ولدى لا يلزق غير فى الوش ، ما يطلع يا ولدى غير بالطبل والزغاريد ، والفرح يا ولدى ما عاد له مكان بيننا ، عمك يا ولدى عاش قدر ما عاش فى وشه لازق وطواط ، عملنا له طبل ، وعملنا زمر ، لا نفع الطبل ، ولا نفع الزمر ، أوعى يا ولدى من طريقك ، أوعى يا بنى من غراب البين ، خاللى با .... " .

لما أحس الجوع يمضغ المعدة ، تلفت حوله ، لم يجد ما يأكله فأكلته الحسرة وأيقن بالهلاك "لما أحس الجوع تحلب ريقه وسال على الوجه ، أكل منخارى الوجه ، كانا ناتئين " .

العينان فى العينين ، والأنف ينزف ، وذوبان المعدة فى البطن ، بلا أنف سار ، بلا أنف جلس ليستريح ، بلا أنف رأى السماء تسقط على الأرض .

فإنه لما أراد الرب خلق السموات والأرض خلق جوهرة مثل السموات السبع والأراضين السبع، ثم نظر اليها نظرة هيبة فصارت ماء ، ثم نظر إلى الماء فغلى وارتفع وعلاه زبد ودخان ، فخلق من الزبد الأرض ومن الدخان السماء ، ثم فتقها وصيرها سبعا للسموات وسبعا للأراضين ، ثم بعث الرب تعالى من تحت العرش ملكا فهبط إلى الأرض حتى دخل تحت الأراضين السبع فوضعها على عاتقه إحدى يديه فى المشرق ، والأخرى فى المغرب باسطتين قابضتين على قرار الأرض السبع حتى ضبطها فلم يكن لقدميه موضع قرار ، فأهبط الرب من أعلى الفردوس ثورا له سبعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة ، وجعل قرار قدمى الملك على سنامه فلم تستقرا ، فأمر الرب ياقوتة خضراء من أعلى درجة الفردوس غلظها مسيرة خمسمائة عام فوضعها بين سنام الثور إلى أذنه فاستقرت عليها قدماه ، وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض، وهى كالحسكة تحت العرش ، ومنخر ذلك الثور فى البحر ، فهو يتنفس كل يوم نفسا ، وإذا تنفس مد البحر ، وإذا رد نفسه جزر البحر".

تهرأ جلد السماء ، تقلصت أمعاء البحر " تعب الثور من حمل الأرض " .

يغوص ، غاص ، شهق فامتلأت الرئة دما ، نزفت الريح حشرجة ثقيلة ممزوجة بعواءات آتية من عالم الجن والعفاريت ، والغول أبو عيون تولد لهيب . وكما جسدين لحظة إختلاط الدم بالدم وتأوهات اللذة بالألم، لحظة خروج البذرة من جوف الجوف ، كانت المخالب تنغرس ،

وتنغرس ، العينان فى العينين ، والألم يعجن الجسد ، الوجه بلا أنف كان ، والذراع بلا عروق كانت والرجلان بلا .. والأرض بلا .. والسماء بلا ...

"إوعى يا ولدى من طريقك ، إوعى يا بنى من غراب البين ، خاللى بالك من .." .

قيل لا أحد يعلم عنه شيئا ، ومازال الناس يبحثون عنه ، فى الطرقات ، فى الأزقة ، والشوارع والحارات والبيوت .

"الناس تنتظرك يا ولدى كما عمك ، بالطبل ، والزمر ، والزغاريد و.." .

يناير ١٩٨٢

ooo

ظل الحبيب

فى اللحظة التى انقلب فيها الحذاء على وجهه ، قررت أن أتركه مقلوبا ، وانتظرت أن تنقلب السماء على الأرض ، أو تخسف الأرض من تحتى . وكلما أمعنت النظر فيما حولى كانت نظرات أمى تلاحقنى أينما ذهبت ، فقلت : لماذا تنظرين إلى يا أمى ؟ فان نظراتك تتعبنى : فتقول لى أمى إنك يا ولدى لم تعدل الحذاء ، وتركته مقلوبا ، ألا تخشى يا ولدى من غضبة الرب من حذاء مقلوب فى وجه ملائكته حملة أمنا الأرض ؟ وقلت لأمى التى كانت ترتجف خوفا وهلعا : لا تحزنى يا أم فان الرب لا يغضب من عباده الفقراء ، ولا تخشى يا أمى أن تميد الأرض فالذى يحملها ثور قوى ، ونحن نثق به وبقرنه ، ثم كيف تميد الأرض الآن وهى التى تتقبلنا فى آخر أيامنا ، حين يصبح اللحم طعام الدود ، والجلد عظما ، والعظم فتيتا . ولابد أن أمى قد اقتنعت بما أقول فقد هزت رأسها وكنت أحسبها موافقة ، ولكنها وقفت وجرت على الحذاء المقلوب ، وجهه فى وجه الأرض وظهره للسماء وعدلته - أنت ملعون أيها الولد الكبير ولابد أن الرب غاضب منك وعليك حتى تغضب أمك ، قلت لأمى وأنا أقعد تحت قدميها وأتناول يديها أقبلهما. ولماذا تغضبين يا أمى ؟ وهل غضبت أمنا الأرض ذات يوم فانقلبت على نفسها كما تنقلبين الآن ؟ رحم الرب زمن السماحة والقلب الطهور والدعوات التى تفتح الأبواب .

قلت لأمى : حدثينى يا أمى كيف تركنا رب بيتنا وظلنا الذى هو أحسن من ظل حائط .

أشرقت الدمعات من عين أمى العجوز ، أمى البالغة العاقلة التى

تفهم من أمور المخبوء الكثير : يا ولدى وظلى الجديد ، الأيام سواقى يديرها الثور الأعمى ، وأبوك تركنا كما الريح تمر على الرمال فتكنس وتكنس حتى يبان عميق الأرض .

قلت لأمى التى اقترب فرعها من الأرض : حدثينى يا أم عن ظل الحبيب ، كيف كان يمشى ، حدثينى عن عاداته ، التفاتاته ، ضحكاته ، نظراته ، همهماته ، بسبساته ، حمحماته ، خبرينى يا أ : هل كان الحبيب يحبك ؟

قالت أمى وأخذت تش ر أ سابعها مثلما يفعل معلم الحساب :

أول عهدى به ، كان حبيبا ، وكان ضاحكا ، وكان طيب الريح .

منتصف عهدى به إنطبعت صورته فى الرحم ، وكان حنونا طيبا ، يربت على خدى فيحمر ، ويملس على شعرى فأروغ من يده ، ويلثم الفم بأعذب القبلات فأكون كما الماء لينا وطراوة .

أما آخر العهد به : فكان كما ريح الخريف ، وكان كما شمس منتصف النهار فى يوم شديد القيظ ، وكانت ريحه قد تحولت إلى إمرأة أخرى هاجر اليها لينكحها ، لكن ظله إنطبع فى الرحم ، وكان أوان حصاد الزرع فقطفتك الداية يا ولدى ، ولم أحل حزام وسطى حتى أصبحت ولدا طويلا يرى فردة الحذاء فلا يعدلها ولا يخاف الرب ولا إنطباق السماء على الأرض .

وأمر بيدى على شعر أمى الأبيض المجعد وأقول :

لابد أن التعب قد أصابك فى تربيتى يا أم. وينام خد أمى المكرمش على كف يدى ، وكانت الدمعات تسح على خديها فتختلط بلعاب الأنف فتشن وتقول : لأجلك يا ولدى يخفق الحشا ، ولأجلك أنا عملت طباخة ، أطبخ الطبيخ ولا أذوقه ، وغسالة أغسل الأحمر والأبيض والمقلم ولا

أرتديه ، وعجانه أعجن العجين وأخبزه ولا آكله ، وأنت تكبر وأفرح . وظلك يتكون فيحجب ظلى ، وليس لى مطلب سوى أن ينطبع ظلك الحبيب فى رحم فتاة أختارها لك فتملأ بيتنا زقزقة ونقنقة وكركرة ، وأصبح جدة أحكى الحكايات فى الأماسى الباردة .

قلت لأمى : والله يا أمى رغباتك على العين والرأس ، وسوف تكونين جدة عما قريب ، وسوف أكون أبا ورب بيت لا أفعل كما فعل أبى وأترك أولادى للوحوش الكواسر .

من أقوال الحبيب :

.. الليل غربة ، وسهد ، وضنى .

.. لا ينام ليل الشتاء إلا أبو قلب خال .

.. ليل الشتاء "تعشر" فيه العنز وتلد مرتين

قلت لأمى : أمى يا أمى ، باركينى وملسى على جبينى فسوف أحمل حالى وأبحث عن ظل الحبيب عسى الظلال تتجمع بعد طول شتات يا أم ، واذا مت فقولى كان لى ولد بار ، وكان كبيرا يسمع كلام أ مه ولم ير ظل الحبيب .

فى البداية تبدو الطريق وعرة ، وفى البداية ترى النهايات بدايات ، وترى أرضا واحدة ، ونهرا واحدا ، وسماء واحدة ، وشجرة واحدة ، وقمرا واحدا ، وشمسا واحدة ، ونفسك إثنتين ، رأيت نفسى ونفسى نبحث عن ظل الحبيب ، قلت : وهل العصافير تتكلم كما تتكلم فى الورق الأصفر؟

وهل هناك الأخوات الثلاث ذوات العين الوا حدة التى لا ترى إلا بجوهرة .

ولكنى قلت أيضاً أنه لابد أن هناك من يحمل السماء حتى لاتنطبق

على أمنا الأرض .

صعدت جبلاً وجبلاً ، ونزلت واديا فواديا ، وعمت فى نهر ثم صعدت جبلاً فوق جبلٍ ، وعندما لمحته كان يقف منحنيا قليلا يحمل فوق رأسه السماء .

تماما كما رأيته فى الورق الأصفر ، عضلاته نافرة ، شعر رأسه يغطى جسده ، تقدمت منه : عليك السلام يا أبانا . نظر إلى ونقل السماء إلى كتفه اليسرى فأبرقت وأرعدت وهطل مطر بلل جسدى وأرضى التى أقف عليها .

من أنت ؟ . قلت له وأنا أحدق فى عينيه الكبيرتين كانتا بلون السماء :

ألا تعرفنى يا أبانا !! أنا الولد الكبير الذى كتب عليه أن يبحث عن ظل الحبيب .

هكذا قالت العناكب ووطاوط الخراب ، تجده مكتوبا عندك فى سفر الغربة .

قال فأرعدت وأبرقت وهطلت : أنا أعرف مكانه ، إذا حملت السماء عنى لحظة جئتك به .

نظرت حيث ملأ الصوت جنبات الوادى : وكيف يحمل السماء من هو فان يا أبانا ؟

وهل أستطيع أنا حمل السماء ؟.

- نعم تستطيع أيها الولد الكبير .

- لنجرب يا أبانا .

وقفت خلفه ، تقلدت عمدان السماء ، كانت فوق رأسى ، ووقف أمامى وقال لى :

إحمل السماء ريثما أتريض ، إحملها ريثما أنط وألعب كما يلعب الخلق .

تلبسنى الخوف وعلمت خبيث فعلته ، قلت أضحك عليه ، وقلت سوف أتركك تلعب وتنط ، ولكن إحمل عنى السماء حتى أعدل نفسى وأتهيأ للحمل الثقيل ، ولابد أنه قد انخدع فقد حملها وتركته ينط من الغيظ ، وقلت : كيف يحملها من هو فان يا أبانا عمن هو غير فان .

أواصل السير ، وفى الليل الوحدة تفتت الكبد ، أتذكر الكلمات :

سوف تمضغ الشمس وتشرب العواصف أيها الولد الكبير ، سوف تمشى وتمشى ، تصعد جبالا وتهبط ودیانا تأكل وتُؤكل ، تشرب وتُشرب، تقتل وتُقتل ، أتذكر الملامح ، طويلا كشجر السرو ، عريضا كبحر بلا شطآن ضاحكا كزهر السوسن ، مجلجلا كريح الشمال ، سخيا كنسيم البحر . أتذكر أننى لحظة رؤياه يكون الموت ، وتكون سقطت ورقتى الصفراء منذ أربعين ليلة دون علمى، وأذكر أنى لحظة أن كنت أحلم فى حضن أمى قمت مخضوضا ، ورمت أمى ريقها فى عبها ، عملت لى طاسة الخضة أم أربعة وأربعين مفتاحا فشربتها وهدأت - مالك يا ولدى ويا كبدى تقوم مفزوعا ؟ هل تجرى وراءك قطط البرارى؟.

لا يا أمى ، رأيت ما رأيت والسلام . وقال الذى رأيته لا تقص رؤياك على أمك فأكيد لك كيدا . وقلت لن أقص وعلى الأمان منك يا ذا المرؤة والرهبوت ، خبرنى كيف حال الأحوال . فزمزم وقال فتجسدت الكلمات :

سوف تراه ويراك ، وتكلمه ويكلمك ، ولكن حذار أن تكلمه فيما حدث وما قد يحدث ، فحديثك لن يجدى قلت :

ولكن ما حدث وما يحدث يا ذا المروة أقوى من إحتمال السكوت .

قال : هكذا تقول الصفصافة العجوز ، وقد آن أوان الأوان فدعنى أرحل واليك سلام الفانى . يتركنى ويرحل ، وحيدا كما بدأت ، أتلفت حولى ، تهب العاصفة ، أقول هل يمكن أن تكون العاصفة هى ظل الحبيب ، ولكن العاصفة لا تلبث أن تهدأ فأقول ظل الحبيب أقوى من هبوب العواصف . تطلع الشمس فأقول هذا الضوء ضوءه ، لكنها لا تلبث أن تغيب ، أين هو اذن ؟ أهو القمر ذلك الرغيف الساخن المضئ فى السواد ، أهو تلك النجوم التى تشبه فى السماء سواد العين فى العين ، أهو النار التى لا تلبث أن تطفئها المياه ، هو الماء اذن ، بل هو البخار الذى يحمل الماء ، بل هو السحاب ، بل المطر ، بل بل ،هو ، هو، أشعر بدوار عنيف ، أشاهد عن بعد فتى طائرا ، يرتدى نعلا ذا جناحين، يقترب ، أتأمله ، حلو الملامح ، شعره الأصفر المتماوج يغطى جسده ويضفى عليه مهابة ، عليك السلام يا رفيق الغربة . وعليك يا رفيق ، جئتك بنعلى الذهب ليعيناك على البحث . وضع أمامى النعلين وذهب ، ألبسهما فأحس بخفة الوزن والقدرة على تقليد الطير .

ألمح عن بعد غبارا شديدا ، شيئا يتدحرج حتى يقف أمامى - كأنه فرخ من فروخ الجان ، أو من عفاريت السيد "سليمان" ، ينظر إلى ضاحكا ، تظهر أسنانه البيضاء فى وجهه الأسمر . يحمل فوق كتفه جرابا صغيرا . إليك السلام من حمزة الأمير ، وأضع نفسى فى خدمتك أيها الولد الكبير . تندى عيناى بالدمعات ، أقبل يده ، لك الشكر منى يا أمير ، أعذرنى لعدم معرفتك فصيتك ملأ الآفاق ، ولولاك لكان العربان فى ذل ومهانة ، وقالت أمى أننا فى إنتظار عودتك والأمير حمزة ، قريتى كلها تنتظر يا أمير . مد يده فأعطانى جراب إسماعيل ، أعطانى مكحلة ومرودا ، أعطانى مرآة أرى بها كل ما أتمنى رؤيته ،

قال : خذها تعينك على الطريق .

قلت : ما أشد مروءتك يا أمير ، لا ذل الرب أمة أنت فيها حاميها. عند صعودى الجبل رأيت "سيف القوة" يتلألأ بأشعة الشمس ، تقدمت منه ، كان مقبضه وجزء منه معرضين للشمس ، الباقى مغروسا فى الصخرة ، تأملته ، كان مكتوبا عليه بحروف النار والنور : هذا سيف القوة ، خذه أيها الولد الكبير علكّ تحتاجه ، فهو مرصود باسمك ، وقد حفظته لك أمك الصخرة ، وسهرت عليه أمك الشمس وأبوك القمر .

مددت يدى ، نزعت السيف ، تلألأ فى أشعه الشمس فأضاء جنبات الوادى ، كان ضوءه أقوى من ضوء الشمس ، كان نصله حادا لامعا كالمرآة - حين كنت أهبط واديا عصر الألم قلبى ، رفعت وجهى فخبرتنى طيور الفلا ، أيها الولد الكبير : اليوم يموت آخر من يحبك ، اليوم مات آخر من أحبك ، أيها الولد الكبير تقول أمك : ولدى وظلى ، حينما تصلك الكلمات أكون فى موات ، أحملك السلام أمانة ، وأوصيك بالكلام الذى يكتب على آماق البصر ليكون لك عبرة ، إحترس يا ولدى، حرص ولا تخوّن ، لا تأمن إلا نفسك ، اليوم أعود إلى حضن أمى وأم أمى الأرض ، منها جئت وإليها أعود ، أوصيك بألا تكذب ، فكذبك يقتل جزءاً من العالم يا ولدى . وقالت وحوش الفلا: لك الرحمة أيها الولد الكبير ، اليوم صرت وحيدا ولكن لا تخف نحن معك .

وقالت السمكات :

لا تخف نحن معك أيها الولد الكبير .

وفجأة ، وحين كنت أمد بصرى ، وقع نظرى عليه فنظرته ، قلت: أنت من أبحث عنه .

رأيته بعلاماته الثلاث : واقفا ، وجالسا ، وماشيا .

قلت : أعرف علاماتك ، أرنى العلامات .
عندما تحقق ظنى عدوت إليه ، قالت الطيور :
احذر أيها الولد الكبير ، وكانت الأرض تشق صدرها فقالت احذر ياولدى ، وا حذر يا كبدى .
إسمع كلام أمك الأرض .
وقالت السمكات : أحذر يا أخانا .
وكانت الريح تهب فقالت : احذر ، احذر .
ولكنى لم أحذر ، ورميت نفسى فى قلبه .

فبراير ١٩٨٤

○ ○ ○

الديب رمّاح

ساعة العصارى ، نادى على الولد "أحمد" ، ونادى على الولد "حازم" ، والبنت "كوثر" بنت عمى "مصطفى"، وقالوا جميعا فى نفس واحد : هيا بنا . فقلت : هيا بنا .

وهناك ، وحين نذهب اليه نفرح جدا لأننا سوف نقابله ، ونفرح جدا لأن الطريق مليان بالبط الأسود والأوز الأبيض الذى يجرى وراءنا يريد عضنا فنخاف ونجرى ونحن نضحك . حين وصلنا ، وقفنا على حافة النهر ، وجعلنا من أيدينا قراطيس وضعناها على أفواهنا ونادينا بالصوت العالى فى نفس واحد : إطلع لنا يا ديب . وسكتنا فجأة فلم يطلع أحد . وقلنا :

جئنا اليك يا ديب . وسكتنا فسمعنا صوت العصافير ولم يرد أحد. وانتظرنا أن يخرج لنا - فخرج ، وانتظرنا أن يتكلم - فتكلم : أهلا بالعيال . دخل فدخلنا . بيته فى النهر ، وقال أبى : إذا خرج الديب من النهر مات كما السمك . جلس على الحصير فجلسنا ، تجمعنا حوله ، أهلا بالعيال . أهلا يا ديب . قلنا :

إحك لنا يا ديب ، يا ديب إحك لنا حكاية . تنحنح الديب ، ورقصّ شاربيه وشعر رأسه فضحكنا وضحك وقال : أحكى لكم حكاية العنزات الثلاث ، واحدة بازى وواحدة مازى ، وواحدة تلعب على عكازى .

قلنا : توء توء ، سمعناها أمس يا ديب ، إحك لنا غيرها ، سمعناها أمس .

حين جلس الديب مقرفصا تململ فاستند بكوعه على المسند ومدد رجليه ونظر إلينا وقد ملس على شاربيه ، قال : صلوا على من يشفع فيكم .

قلنا : ألف صلاة عليك يا نبى .

زيدوا النبى صلاة .

عليه الصلاة والسلام .

كنا بالليل يا عيال ، والدنيا كحل ليس فيها صريخ ابن يومين . وكان البرد رصاصا يخرم البدن ، خرجت للنهر ، ركبت المركب وفردت الشبك فوق ذراعى وطوحتها بعزم قوتى فإستقرت فى النهر ، تركت المركب تمشى مع التيار وعفرت سيجارة وغنيت عينى عليك يا مراكبى، فعجبنى اللحن فزدت فى الغناء : البحر بيضحك ليه وأنا نازل أدلع أصطاد سمك . توقفت فجأة فقد هدنى السكون ، وقلت لو أن لى ولد يؤنس وحدتى فى النهر ، ولكنى كنت مطمئنا فالنجوم معى ، والقمر كان بجانبى فى النهر والأسماك أصدقاء لى ولا أخاف الليل . وكنت أسحب الشبكة ووجدتها ثقيلة جدا فحمدت الله وقلت الخير يأتى دائما فى الليل ، وأنا أحب الليل ووشوشة النهر ، وسحبت، و سمعت عويلاً وصراخاً وأصواتاً كثيرة فقلت أنا لا أخاف شياطين النهر ، ولمحت سمكة كبيرة معلقة فى الشبك . وكنت لا أستطيع رفعها فصحت صيحة عجيبة وجذبت بكل قوتى - تخيلوا يا عيال - السمكة جذبتنى ، وكتاب الله السمكة جذبتنى، أنا أشد وهى تشد ، وكانت قوية فسحبت المركب بسرعة شديدة فانقلبنا ، المركب ، وأنا ، لففت الحبل المربوط فى الشبكة على يدى ولم أتركها وأخذت أغوص ، وتحت الماء رأيت أشياء عجيبة ، فهذه قصور من الذهب الخالص ، وهذه نساء من الحليب الصافى ، هل تدرون ماذا حدث بعد ذلك يا عيال .

قلنا : لا يا ديب ، أكمل يا ديب .

قال : لن أتحدث قبل أن نأكل ، سوف نأكل سمكا ، خرج الديب وكنا

نستعجله حتى يكمل لنا ماذا رأى تحت الماء ، وضربت الولد "أحمد " على قفاه فزغدنى فى بطنى . عاد "الديب رماح" يحمل قفة مليئة بالسمك ، سمك قرموط يلعب ويهز شواربه ، أمسكته من أحد شواربه فعضنى فى اصبعى ، قلت : سوف آكلك يا قرموط . أشعل "الديب" ناراً وأخذ يشوى السمك ، وقلت :ألم تجد خاتم "سليمان" فى بطن سمكة يا ديب ؟

فأخذ يقلب السمك وقال من بين شاربيه : أنا عثرت على خاتم الجن فى بطن حوت كبير .

قلنا : خبّرنا يا ديب ، خبّرنا كيف عثرت على خاتم الجن ، وهل رأيت الجن .

لن أحكى لكم حتى نأكل . فأخذنا نأكل بسرعة شديدة حتى نسمع حكاية خاتم الجن ، و كان السمك ساخنا فلسعنى فى حلقى ولسع البنت "كوثر" فأخذت تنفخ الهواء بفمها المليان بالسمك ، وكنا نضحك ، ومسح الديب يده فى سرواله الأسود الطويل وقال نشرب شايا . وقام لعمل الشاى ، وقلت لو أن الواحد يعثر على مفتاح الكنز المرصود خارج كوم الضبع كما قال أبى . قال الولد "حازم" : الكنز لا يفتح إلا بالدم ، ولم يعثر عليه الرجل الذى قتل منذ ثلاث سنوات ، هل تذكرون حين وجدناه مذبوحا عند الترب ، هذه الترب هى باب الكنز ، ومن يومها لا أحد يمشى ناحية الترب بالليل . قلت : سوف أجده ، فأنا أعرف مكانه . ضربنى "أحمد " على وجهى وقال سوف أعثر عليه قبلك .

جاء الديب يحمل براد الشاى وكوز صفيح صغيرا فشربنا ، وأشعل سيجارة ونفخ فى الهواء فتكونت سحابة من الدخان كبرت حتى كانت عفريتا كبيرا بحجم الهواء .

قلنا : إحك لنا يا "ديب" . شد نفسا طويلا نفخة وتنهد وقال:

أحكى لكم عن إبنى "محمود" ، كان مثلكم بالضبط ، ولد جميل بلون النهر ، أمه كذلك ، هل رأيتم أم "محمود".

لا يا "ديب" لم نر أحدا .

أخذتها الجنية هى و"محمود" ، لوتعرفوا السبب زال عجبكم ، أصل الجنية كانت تحبنى جدا فغارت من أم "محمود" لأنها أجمل منها ، ولأنى أحب أم "محمود" ولا أحب الجنية .

قلنا : إحكى حكاية "محمود" وأم "محمود" يا "ديب" .

إيه .. كان ذلك قبل أيام الجفاف بأيام ، فى اليوم الذى ذهبت فيه لأصطاد بعيدا ، عند الضفة الأخرى للنهر ، كان القمر كالرغيف البتاو ، وكان يعوم فى النهر ، قلت : سوف أصطاد القمر ، وطرحت الشبك ، وأخرجت من قاع المركب لقمة ناشفة وحتة جبنة وأكلت فشبعت ، ملت على حافة المركب وغرفت حفنة ماء شربتها فارتويت ، دخنت سيجارة بلمونت، و كان النهر هادئا فتحدثت مع السمكات مقدار ساعة أو يزيد، وفى الليل سمعت صوتى يغنى أغنية النهر ، وسمعت موسيقى النهر فزدت فى الغناء ، ووضعت يدى على أذنى وقلت بصوت عال : إسمع يا نهر وإسمعى أيتها السمكات الطيبة :

أول مانبدى نصلى على النبى
نبى عربى لم بعد نوره نور
عاشق رأى مبتلى قال له إنت رايح فين
وقف قرا قصته بكوا سوا لتنين
راحوا لقاضى الغرام لتنين سوا يشكوا
بكوا تلاته وقالوا حبنا راح فين .

كان السمك ينط يلعب ، وكان يقفز عاليا فيقع فى الشبك ، وكنت قد توغلت فطلبت الرجوع ، وقاع المركب إمتلأ عن آخره بالسمك القرموط ، والسمك البساريا ، وكان المركب يشق النهر نصفين ، وحين إقتربت من البيت إصطدم المركب بشئ فكاد ينقلب ، وحين دققت النظر رأيت وجهين يطلان من قاع النهر ،

إنعكس القمر على وجهى "محمود" وأم "محمود" .

بكى "الديب رماح" ، وأخذنا نطبطب على ظهره وقلنا لا تبك يا"ديب" . وأخذنا نبكى فقال لا تبكوا يا عيال ، وبكينا جميعا . ومسح الديب عينيه بكم قميصه وقال : إسمعوا يا عيال ، أحكى لكم حكاية .

قلنا إحكى يا "ديب" .

كان هناك ثلاث عنزات ، عنزة بازى ، وعنزة مازى ، وعنزة تلعب على عكازى . نظرت إلى الولد "أحمد" ، ونظر أحمد" إلى "كوثر" ، ونظرنا جميعا إلى "حازم" ، وقلنا فى صوت واحد : إحكى يا "ديب" حكاية العنزات الثلاث . أشعل سيجارة وسحب نفسا نثره فى الهواء فبان العفريت كبيرا ، وبانت أسنانه بيضاء مسنونة تلمع وهو يأكل العنزات الثلاث ، وقلت أنا أعرف هذه الحكاية ، وكنت أنام ، وبدا صوته خافتا :

صلوا على النبى . ألف صلا عليك يا نبى . زيدوا النبى صلاه .. هم ثلاث عنزات ، عنزة وعنزة ، وعنزة ، ولما كانت العنزات الثلاث واحدة بازى ، وواحدة مازى وواحدة تلعب على عكازى ..

كان صوته يخفت ، يخفت ، وكنا نسمع صوت النهر ، وأصبح صوته همسا ، وكنا ننام .

سبتمبر ١٩٨٤





حكاية المرأة التى ولدت تحت الجمل !



أول ما نبدى القول نصلى على النبى ونعيد

إسمعوا يا صحاب ، والله على ما أقول شهيد :

أن فتاة الريف الساذجة ، حين أتت إلى المدينة ، تزوجت رجل البنادر الكبير ، الطالع دوما دوما - لأنه بناء - وخدمت على ثمانية أفواه صغار ماتت أمهم ، وشالت الطين وهى بعد صغيرة ، جاعت وتعّرت وأنجبت أول بطن فتاة سمراء بلون الحزن المعشش فى الحشا ،

وقالت نحمده على كل حال فسمت البكرية "قدم السعد" ، وباست باطن وظهر اليد ، وصارت تنشد وهى تعيط وتقول - أنا وأنتم نصلى على طه الرسول :

إبكى يا عينى واجرحى خدك

كداب من كاده الزمان زيك

إبكى يا عينى واجرحى عينك

كداب من كاده الزمان غيرك .

وبكت على فراق الأهل والأحباب ، وقسوة أولاد الزوج اليتامى ، وبكت "قدم السعد" ، وقالت الأم :

قدم السعد ، لا تبك يا حبة القلب ، هوووه .. يا لله تنام قدم السعد- يا لله تنام ، وأدبحلك جوزين حمام ، هوووه . فازدادت قدم السعد بكاء ، وازدادت فتاة الريف بكاء على بكاء قدم السعد .

***

يا سامعين القول صلوا على النبى :

فتاة الريف حين أتت المدينة ، كانت صغيرة قدر صدرها الذى لم يطلع

بعد ، وكان أولاد المعلم مثل ذلك أو يزيد ، مقداراً أو مقدارين ، وكانت لا تأكل إلا إذا أطعموها ، ولا تلبس إذا لم يلبسوها ، ولا تمشى حاملة قدم السعد فوق صدرها دون إذن وعلم، وقالت وكانت قدم السعد نائمة فوق الصدر :

يا بنت الناس ، العيشة ليست سهلة ، ويا بنت الناس عليك بالصبر وقد باعك أبوك للرجل الذى يكبره قدر سنوات الحزن ، ولم يدفع إلا حق العربة التى شالتك وحطتك بالليل ، من كوم الضبع حتى بولاق الدكرور، وسط لحم صغير يريد يأكلك أنت الصغيرة التى لم تر من أمور المخبوء الكثير ، يا بنت الناس ، تذكرى ما قاله أبوك وصدقت عليه أمك وستك الخضرة : كوم الضبع فيها ولدنا ، وفيها رأينا مولانا الشيخ "الضبعى" يخرج من البحر ويعود حين يطلب الجسد الأرض التى أنبتته ،

وحين تطلب الروح مكان الميلاد .

ولما أحست أن البطن مثل بيضة الرخ التى قالت عنها الجدة "خضرة" توحمت - فتوحمت ، وقالت :

نفسى فى عنب بز العنزة يا معلم .

وحياة أبى يا معلم نفسى آكل عنب بز العنزة .

ولما سمع أولاد المعلم قالوا :

إسم الله على وحمك الشين ، أنت لا تراعين مصلحة أبينا ، أبونا ليس حملك وحمل دلعك الماسخ .

وجاءها المخاض فتمخضت ، وبكت وصرخت ، وعضت الشفة فانغرس صف السنان فى اللحم ، وقالت الداية يا مسهل سهل . فأطل رأس صغير طرى ، وأطلت ذراع وذراع ، وأطل جسد ، ورجل ورجل ، وندهت الداية على بنات المعلم : جاءتكم أخت لكم ، بشروا أباكم .

فأطلت الحسرة من عيون البنات والصبيان .

أقول أنا الراوى - بدمع جرى فوق الخدود "سكايب" :

أن "سعدية" الجديدة ، كانت فلقة قمر ، وأن كل من رآها صلى على الحبيب. حبيب الحبيب الذى يصلى على النبى .

وأن الناس صارت تتفرج عليها ، وقالوا ليست طالعة لأبيها المعلم ، وليست طالعة لأمها فتاة الريف التى شربت من لبن البنادر ، وقالوا سبحان الله يرزق من يشاء ، وكان من يراها ، يظن انها إبنة ربيعين ، وليست إبنة أسبوعين ، وعلقت الأم حجابا ، فوق صدر "سعدية" ، وعلقت خمسة وخميسة ، ورسمت فوق جبينها الأبيض والأحمر صليبا بالفحم ، ولكن هى العين التى فلقت الحجر ، نظرت وشافت فإتسعت وحسدت . تململت البنت فى يد الأم ، وكما الخرقة القديمة صارت ، ورأت الأم ابنتها تموت فبكت ، وأنتّ واشتكت ، وأخذت تضرب صدرها ، ورفعت وجهها إلى السماء ، وصارت تنشد وتقول - صلوا بنا على طه الرسول :

عيانه يا بنتى صعبانه عليا يا عيانه

وكل من شافتك طلعت زعلانه

عيانه هاتى ايديكى - صعبانه عليا

عيانه هاتى ايديكى

قلبى وقع جنبى وأنا باطل عليكى .

ثم بكت فماتت البنت .

وقالت الأم . يا ناس ، إبنتى كانت حلوة حلاوة خلوف النحل ، وابنتى يا ناس أنا ربيتها على لبن يخرج من صدرى شعرت به يبل عروقها الخضراء فى جسمها الأبيض ، راحت ابنتى يا ناس ، هاتولى

ضناى "سعدية" .

طبطب الزوج على صدر الأم وناداها :

يا بنت الناس ، وديعة أخذها الله ، وأنا أعطيك غيرها .

وباس الخد والخد وقال : حكمته . وملس على الجبين وقال : ما تعز على واهبها . وناداها : أنا أعطيك غيرها . ولما قبل عينيها ، إنتفخت بطنها ، وتوحمت فتوحمت وقالت : نفسى فى لحم الجمل مسلوقا يا معلم.

وحين جاءوا بلحم الجمل - أكلت ، وشربت "مرقة" لحم الجمل بالبصل، وأكلت "فتة" بمرقة لحم الجمل ، وطلبت السفر لرؤية الأهل والأحباب - فسافرت .

نقول يا سادة : أنها ليلة سافرت ، وقعدت على الفرن فى القاعة الكبيرة التى ليس لها شباك ، وولت وجهها شطر الطاقة التى فى السقف ، ونامت فرأت نورا يخرج منها فيملأ الأرض والسماء ، ورأت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ساجدين . صحت فجأة على صوت يناديها أن قومى يا "أمينة" فقامت ، واجلسى يا "أمينة" فجلست، فركت عينيها ، تلفتت حولها ، لم تجد أحدا ، نامت على الفرن ، تذكرت الرؤيا التى رأتها ، تعجبت نظرت. إلى الطاقة التى فى السقف ، كان القمر بدرا ، وكان هناك أرنب يدق "الهون" ،

وكانت هناك فتاة حلوة بلون القمر تقف تجاه الأرنب .

تنهدت ، قالت : لو تجيئنى فتاة حلوة بلون فتاة القمر ، شعرت ببطنها تتحرك ، أحست بألم ، قامت ، نزلت ، وقفت أمام "البحراية" ، سارت ، راحت وجاءت ، تقوس ظهرها للأمام ، قالت : الليلة هى السابعة بعد المئتين ، والليلة يكون البدر ساعة كماله ، والليلة أنا رأيت

نورا يخرج منى فيملأ الأرض ، ورأيت الشيخ "الضبعى" يخرج من البحر راكبا البراق وحوله جنوده يرتدون البياض ، والليلة أنا مندوهة من جنية البحر ، وأنا أكلت لحم الجمل مسلوقا وشربت المرق . كانت الشمس طلعت ، وكانت بطنها تتقلص ، "وزغدت" أمها الراقدة على ظهرها كالسمكة الميتة ، وقالت: قومى يا أمى فقد هدنى التعب ، واللحم يلعب فى بطنى يا أمى من الليل حتى طلوع الشمس ، ولابد أن أوان الولادة حان .

لما قامت الأم - يا سادة - ونظرت ، ورأت التعب قد أصاب فتاتها آخر العنقود قالت : تمددى على الفرن يا نن عين أمك - فتمددت . وقالت : إفتحى رجليك حتى يتسع مخرجك - ففتحتهما . وقالت : إحزقى فحزقت ، وحزقت مرة ، ومرة ، من الصبح لما قرب الليل، والروح رخصت وهانت ، وقالت الأم الولادة عسيرة ولابد من وجود الداية .

ولما جاءت الداية قالت : إحزقى يا نن عين خالتك

- فحزقت ، ونظرت فلم تطل رأس من بين الرجلين فسترت الرب ، وبامسهل سهل ، فلم تطل رأس ، وبركاتك يا شيخ "عبد الله ياضبعى" يا ساكن البحر .

نظرت إلى الراقدة تعض ملاءة حصير الفرن ، نظرت إلى الجمع الملتف حول الفرن ، قالت : ماذا أكلت اليوم ؟

لحم جمل . وماذا شربت اليوم ؟ مرق لحم الجمل .

حين خرجت الداية وعادت ، عادت بجمل ذكر.

جمل عال بسنم وسنم وشخير . قالت هذا لابد منه حتى ينزل العيل.

سارت محنية حتى وقفت أمامه، كانت لا تستطيع الوقوف ، لكنها تحملت ، قالوا خطىّ - فخطت .

فى المرة الأولى كانت الشمس تضحك فبانت أسنانها الذهبية ، ورأت أحد السنمين يتحرك ، وقالوا ارجعى - فرجعت ، كانت عيون النسوة الملتفات حولها ترمقانها ، وكانت هناك إمرأة تولول وتلطم الخد والخد فسمعت رنة الخدين ، وصوت المرأة يناديها خطى يا عزيزة عينى وعين أمك .

فى المرة الثانية زعق الجمل وفتح ما بين رجليه فجفلت ووقعت ، أسندوها حتى وقفت .

فى المرة الثالثة أحست بدبيب النمل فى بطنها ، ورأت السماء قريبة من الأرض فمدت يدها قطفت نجمة خبأتها فى صدرها .

وفى الرابعة سمعت صوت خرير مياه الساقية وسمعت صوتا آتيا من بطن الجمل أن خطى ، فخطت .فى الشوط السابع سمع الجميع بكاء "عيل" .

وفى الشوط الثامن جلست وجلس الجمل ، فتحت رجليها ، رأى الجميع شهابا ينبعث منها فيملأ الأرض نورا ، كان الجمل جالسا يئن فاتحا ما بين رجليه ، ورأى الجميع رأس جمل صغير تطل من بين رجليه، وكان الجمل يموت ، وكان هناك طفل يخرج وقد مس الأرض يتقيها بيديه ، ، رافعا رأسه للسماء ، وصرخ الجمل ثم سكنت حركته .

والشئ العجيب الذى حدث يا سادة ، وتعجب له كل ذى عينين وأنف وأذن ، أن الطفل نزل بلا خلاص .

أغسطس ١٩٨٤

○ ○ ○

لما أتانا الموت



لما كنا إذا مات الواحد منا ، تكسرت فروعنا وتحممنا بالطين ، وأقمنا العديد ، ولبسنا السواد - فقد مات واحد منا .

وأول أفعال مساعدة الميت هو فعل توارثناه حتى سابع جد ، وهو إسبال الجفن - فسبلناه .

وثانى الأفعال نطق الشهادتين - فنطقنا بهما .

ثم فردنا اللحاف فغطاه إلا رجليه فتذكرنا وقلنا : رحم الله آباءنا وآباء أبائنا ، كانوا لا يمدون أرجلهم إلا على قدر ألحفتهم ، أخونا الذى كان يبلغ الجبال طولا هده الحزن فمات موت الفوارس الذين كان يسمع نبأهم من أفواهنا فيردد : أريد موتة كما موتة "الزناتى خليفة " لا كما مات الخفاجى عامر ، لكنه ما مات إلا بعد أن اقترب من شمس العرب التى أذابت جناحيه فهوى .

قلنا لم يجئ أوان التلقين الذى نقشه "عبد الجواد" الكبير على سقف الجرة التى ما ترك غيرها لأبنائه الاثنى عشر ذكورا واناثا فقامت الحرب التى إستمرت من السنين أربعين على من يرث الجرة ونادينا على النسوان وأذنا لهن أن صوتن يا نسوان "عبد الجواد" الكبير "على عبد الجواد" الصغير ، الذى كان يرى ما شيا وكأنه راكب ، وبيده العصا الخيزران التى قال عنها : هى عصاى أتوكأ عليها وأهش الناس والعصافير ، وأحفظ فيها حربة الزغبى الأحمر .

وقلنا : يا نسوان شققن الصدور والطمن الخدود حتى ينزل الدم الخائب الذى ما عمّر وجوهكن الا لسبب ، ففعلن ، وجعلنا كل نجاب يمر على بلد بالطبلة والجلدة المعمولة من ذيل العجل فيضرب وترن : يا أهالى

البلد الفلانى ، مات اليوم فلان الفلانى ، إبن فلان ، من عيلة فلان ، الحاضر يعلم الغائب ، والعزاء بالليل ، وقلنا :

لن يمر وقت حتى تزدحم البلدة بالمعزين أصحاب الواجب ، يأتون راكبى الركايب من كل صنف ولون ، وقلنا لن يمر وقت حتى نقوم بواجب الدفن ، فاشترينا الكفن الغالى من الحرير الأخضر والساتان الأبيض وماء الورد ، وقمنا بتسخين الماء وغسّلناه ، وقلنا : سنحن رفاقك يا عريس ، بيدنا غسلناك لا بيد أحد آخر .

وكنا نرى يده تتحرك لتستر عورته فنعجب لذلك ونقول هى حكمة الله أن يرينا معجزة تتحقق ، وأنشدنا وجهرنا بالقول - صلوا بنا على طه الرسول : مادى اللاجدع ياشين صبحيته، ودوه للغاسل بطاقيته . مادى اللاجدع ياشين صبحيتك، ودوك للغاسل بطاقيتك . حتى إذا ما إنتهينا من تكفينه ، فقرفصناه ، ووضعنا تحته لحافه الجديد الذى كان يحبه حبه لامرأته ، وقلنا مع السلامة يا "غندور" ، سيرى أيتها الخشبة فوق أكتاف الرجال ، فأخونا كان يحب أن يحمل على كفوف الراحة ، وأخونا كان لا يخاف الموت ، وكنا نقول له : أن الموت مخيف يا أخانا .

فيقول : الموت لحظة ، حين يريكم سيدنا "عبد الرحمن" نفسه كما يراه الرحمن ، ويفرد لكم جناحيه بعرضهما الذى يقدر بمسيرة خمسمائة ألف عام ، وطولهما الذى مثل ذلك ، فتطلع الروح من الرهبة والخوف . هكذا كانت مراسيم أخونا تتم .

حتى إذا ما إنتهينا وخرجنا قلنا للنسوة الملطخات بالطين والزهرة الزرقاء : قدمن تحية الميت . فصوتن وعولن ولطمن الخدود حتى سال الدم ، ومرغن وجوههن فى التراب والطين . وحملناه على أكتافنا وجهرنا بالقول فأنشدنا :

طالع واحنا وراه ننوح ، قال عاودوا بخاطركم تروح ..
طالع واحنا وراك بالعين ، قال عاودوا رايحين ورايا فين ..

ثم سارت الخشبة بقوة السر الأعظم ناحية الجامع الكبير الذى على كتفيه حمل حجارته ، وبيديه "غفق" مونته ، حتى أصبح يسر الناظرين ، فصلينا عليه مع الصحابة ،وقلنا ما صلى أربعون مؤمنا على ميت إلا دخلها ، وسقناه إلى قبره الذى تظلله أشجار التوت الأحمر ، والتوت الأسود الحبشى الذى يحبه وقلنا قد جاء أوان التلقين :

منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم تارة أخرى ، منها خلقناكم للأجر والثواب ، وفيها نعيدكم للدود والتراب ، ومنها نخرجكم للعرض والحساب . يا بن آدم ، أذكر وتفكر على ما خرجت عليه من الدنيا ، وهو شهادة أن "لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله "، إذا أتاك الملكان الصّديقان وأخذاك وسآلاك عن الكريم الحنان فقل لهما بلسان عربى فصيح : الله ربى حقا ، ومحمد نبّى صدقا ، والقرآن امامى ، والكعبة قبلتى، والمسلمون إخوانى ، وإبراهيم الخليل أبى ، هذا آخر ما تسمع بأذنيك طعام الدود ، عليك سلام الله يا أخانا . وحملناه بأيدينا، أخونا الذى حملته الطائرة التى لم يركبها أبوه من قبل ذاهبا إلى بلاد العرب ، راجعا يده اليمين وراءه ، ويده الشمال قدامه . وسقناه إلى القبر، ووضعناه برفق ، وأنمناه على جنبه اليمين الذى كان لا يلذ له نوم إلا عليه، وكبشنا من تراب القبر، وقلنا : باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله ، هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ، إنا لله وإنا إليه راجعون، وضعنا التراب تحت صدغ أخونا اليمين ووجهناه إلى القبلة وقلنا:

لما كنا إذا مات الواحد منا ، وإنفرط عقدنا ، وجب علينا عمل الواجب نحوه ووقفنا موقف الرجال - فوقفنا موقف الرجال ولطمنا الخد

والخد ، وجهرنا بالصوت فأنشدنا بالقول ،صلوا على طه الرسول :

باب اللحود مش زى باب البيت ، كتفك عريض وازاى خشيت .

باب اللحود مش زى باب الدار ، كتفك عريض وازاى تندار .

ولما رجعنا قلنا قد جاء أوان أخذ العزاء ورواية الحكاية من البداية حتى النهاية على الاخوان ، وقلنا إسمعوا يا إخوان :

أول ما نبدى القول نصلى على النبى .

نبى عربى ركب البراق وسار :

تبدأ الحكاية من هنا لا من هناك ، وهنا كان أخونا جالسا يأكل العيش "البتاو" مغموسا فى المش ، وهنا ضحك ، لكنه إغتم بعد أن قالت له زوجته التى شاركته أيام المآسى ولم تشاركه أيام الفرح بعد :

يا زوجى ودرة عمر الصبا الذى ما ولىّ وما ذهب ، أولادك يحتاجون من الهدوم ما يستر مؤخراتهم من ملقيح الشمس ، ويا زوجى عيالك يبغون المصروف ليعمروا "سيالاتهم" حتى إذا ما طلبت النفس شراء "الحلبسة" إشتروها كما يشتريها أولاد "الأفندية" ، ويا زوجى ، ويا زوجى ، فازدادت حسرته ، وأقسم بالطلاق ألاّ يزدرد الطعام الآن وقد شفّه الحزن .

هو قام من جلسته حول الطبلية ومشى غضبانا ، و تعلقت عياله برجله ، لكنه رفسهم فبكوا وصرخوا:

أبانا يا أبانا ، لا تتركنا يا أبانا لكنه إختفى من أمامهم ، إختفى إلى أين !! هذا مالا يعلمه إلاّ الرب ، لكن البعض تقولوا على أخينا، فقالوا هو يذهب إلى المرأة الجميلة التى تقع دارها فى أول البلد ناحية الترب، والتى لحظة يجيئها تفرش له جسمها يتمرغ عليه ويتغطى به من برد الشتاء ، وتسقيه من لبن العصفور الكثير حتى يغيب عن نفسه وعن

جسدها ، ثم تعمل له العمل الذى لا يفيق بعده أبدا فيهيم على رجليه ماشيا على سكة الزراعية متجها ناحية "الشعب" مغنيا :

الطشت قـاللى ، ترلم ، الطشت قـاللى .. ترلم .. يا حلوة ياللى.. ترلم لم لم . فيسعد ويضحك وتسمع ضحكاته فى أول البلد وآخرها حتى البرارى وأبو زلوم .

هكذا رأوه ماشيا وعلى وجهه إنبساطة ، وعلى شفتيه بقايا من لبن العصفور الأزرق والأحمر الذى تقتنيه المرأة الجميلة والذى يتحدث بلسان عربى فصيح وينادى على المارة من شرفته العالية زاعقا : أبوك السقا مات . فيندهش الخلق ويقولون ما هذا إلاّ سحر هاروت وماروت . وقلنا للناس : ابكوا يا ناس على أخينا زين البـلاد الذى ذهب ليـرى بلاد العرب بعد سماعه حديث الهلالى سلامة من الراديو "الفيليبس" الذى اشتراه معوض حين سافر ورجع فما اشترى غيره وقيمص تلبسه إمرأته الحولاء الحاملة بيضة الرخ بين كتفيها فى ساعات الضيق فيحل الأنس .

ووقف أخـونا ذات يوم وتحـدث فى الناس : يا ناس ، سـوف أمـشى حتى بلاد العرب ، وأكبش من كوم الفلوس وأرجع . فباع أرضه ، وذهب إلى البندر لعمل "البازابورت" . وقالت له امرأته : بلاد الغربة ناسها لا يأكلون الملوخية فخذ منها مقدارا أو مقدارين، وصرّت له البصل والثوم وذكر البط المحمر ، وسافر بعد أن أوصته بجلب الملبوس من الحرير الطبيعى والمقصب ، والمشموم من العطور وألا ينسى رائحة القسيس التى تحبها والتى تشمها على بدن امرأة مهندس الرى .

سافر أخونا يا مستمعين وما كان فى وداعه أحد . وانتظرنا رجوعه يا ناس فما رجع .

وانتظرنا أن يحمّل سلامة لجابا يجوب البلاد فما بعث سلامه .

وانتظرنا ، وانتظرنا شتاء بصيف ، وصيفا بشتاء ، أعقبه خريفا بخريف . لكنه عاد عودة الزغبى الأحمر الذى كان يحمل حربته ، عاد فى ردائه الأبيض ولم يكن قد كبش من بلاد الفلوس بعد .

ooo

ثلاثية موت أمي
أحدوثة عن الفقد

وفيها ما جرى لأمينة بنت مرشدي راضي
من الأمور العجيبة والحوادث المدهشة الغريبة
التي تطرب سامعها وتلذ قارئها
بالتمام والكمال
والحمد لله على كل حال .

القصة الأولى

لما بدا يتسلل الموت إلى امى

" لا تدفنونى تحت شجرة تظلنى
الا على جبل وعينى تراكم"
أمينة توصى أولادها



أمى التى جاءت من كوم الضبع حتى بولاق الدكرور بالليل فى عربة دفع أجرتها أبوها ، حين تزوجها من يكبرها من السنين - بمائة إلا ستين وصار أبى - سوف تموت الآن .

قالته لى بلسانها الذى لا ينطق عن الهوى ، إن هى الا رؤيا رأتها ليلة النصف من شعبان حين نامت على جنبها اليمين فرأت ما لا عين رأت ، وسمعت ما لم تسمعه أذن قط ، ولا خطر على قلب بشر من قبل. إذ قالت أمى وجلسنا حواليها نسمع :

رأيت مناما ، إنما المنام راعنى ، طير عقلى من دماغى وراح .

رأيت سبع حمامات نزلن من العلا، نزلن دهاشى يغلبن الرياح .

ورأيت حمامة خضراء تنزل وحدها ، وتشير لبيتى فى مساء وصباح ،

ورأيت بركة ماء مسود ماؤها ، جميع من وقع فيها أكله التمساح

ورأيت نفسى داخل قاعة مظلمة ، فلا لها ضبة ولا مفتاح، هذا ما رأيت يا أولادى فى رؤيتى، والحكم لله العلى الفتاح .

وحين سأل أمى - أبى ، عما إذا كانت قد تغطت جيدا . أقسمت بتربة أمها أنها رأت رؤيا الموت ، وسمعت موسيقى الموت ترن فى أذنها الشمال فتأكدت .

قلت لأمى : لماذا يا أمى "تفولين" على نفسك بالموت ، فأل الله ولا فألك يا أمى .

فتقول لى التى حكت كيف أحبت وكانت بعد صغيرة ، وكيف علم بزواجها فمات حزنا . تقول ويحمر وجهها :

والله يا ولدى أحببت فزوجونى من لا أحب . وتخبئ وجهها الأحمر فى صدرى فيختبئ : الموت علينا حق يا ولدى ، وسيدنا "نوح" عاش

من العمر ألف سنة إلا خمسين، فلما جاءه سيدنا "عبد الرحمن " فى عشته المعمولة بالخوص قال : يأتى من بعدك خلق يعيشون من العمر ستين، يعمرون ويبنون ، ويسعون فى مناكبها . فتعجب من ذكر ذلك .
وقال : لو عشت ستين عاما فقط لانتظرت هذه الستين جنب قبرى .

قالت أمى وطلعت مددت على سريرنا العمدان ، وطلبت منا الخروج فخرجنا ، ثم أنها طلبت من يرتل القرآن ترتيلا فوق أذنيها ، فجاءها صوت الشيخ "عبد الباسط" : إذ قال "يوسف" لأبيه يا أبت. ونطرب لذلك ونقول الله يفتح عليك يا شيخ مثل ما فتحت قلوبنا بالذكر الحكيم. ولما سمعت : فصبر جميل والله المستعان . أشاحت بيديها فلم نفهم ماذا . حتى مرت ثلاثة نهارات وثلاث ليال بالتمام والكمال قالت أمى فى نهايتها : تعالوا يا أولادى سلموا على أمكم .

فجئناها وحدانا، وكانت تقول للواحد منا :سامحنى يا بنى . فيقول : سامحتك يا أمى ليوم الدين . حتى إذا ما إنتهينا من السماح الأخير- وكان لأبى ، قالت :

ربى إشرح لى صدرى بأولادى فقد خلقوا فى كبد

ثم أنها نظرت إلينا فى حسرة ، وقالت بعد أن ذرفت عبرة : أوصيكم فكونوا عند حسن ظن أمكم بكم :

أذكرونى أذكركم ، لا تدفنونى تحت شجرة تظلنى ، إلا على جبل وعينى تراكم - ليطمئن قلبى .

ثم قالت : غطونى بلحافى الجديد ، ثم راحت فى النوم العميق الذى لم تألفه من قبل .

كيف ذهبت بأمى إلى حكيم المصحة
وكيف قال لى : ارجع بأمك يا ولدى
فانها تموت :

أقول : أن أمى حين تهيأت للنوم - نامت ، وحين دخلنا عليها وجدنا صوت تنفسها عاليا جدا فخفنا أن يزعج صوت أمى - أمى ، واقتربنا أكثر ، إقتربت أنا أكثر فلم تدر بنا. ولما قبلتها فى جبينها لم تضمنى إلى صدرها ، ولم تلعب بأصابعها فى شعرى فانزعجت وناديت على الأسطى "خليل" صاحب العربة التى تقف أمام الباب فطلع ، ورجوته أن يأخذنى وأمى إلى حضرة حكيم المصحة المجاورة فأخذنا ، وكانت أمى تنام على صدرى وغطيطها يرتفع . قلت :

نامى يا أمى فى هدوء فقد وصلنا لحضرة الحكيم :

واحد اتنين سرجى مرجى ، أنت حكيم ولا تمرجى ، أنا حكيم الصحية ، العيانة أديها حقنة ، والمسكينة أديها لقمة ، بدى أزورك يا نبى ، ياللى بلادك بعيدة ، فيها "أحمد" و "حميدة" ، "حميدة" ولدت ولد سمته "عبد الصمد" ، مشيته على المشاية ، خطفت راسه الحداية ، حد ياحد يا راس القرد ، انت ولد ولأ بنت .

ضحكت أمى ضحكة طويلة جدا قالت فى نهايتها وهى تمسح عبرة : خيرا ، اللهم اجعله خير . قلت : والله يا أمى حكاياتك حلوة . لكنى بكيت ، ووصلنا فحملتها والأسطى "خليل" الله يستره .

ناديت حضرة الحكيم فجاءنى ، ولما نظر إلى عينيها نظر إلىّ ، ولما أمسك ساعدها اليمين نظر إلى ساعته وترك أمى ومشى ، وحين أمسكته من البالطو نظر وراءه ، ثم أنه حدثنى هامسا :

خذها معك يا ولدى ولا تتعبها فانها تموت ، أطلب الرحمة من الله .

فلما سكت حضرة الحكيم بكيت ، ثم أننى رميت نفسى على أقرب مقعد فوقعت على أقرب أرض ، ولطمت لطمتين .

كيف استقبلنى الاحباب
حين عودتى وامى بالعويل
والصوات . كذا اللطم :

أقول بعد الصلاة على النبى الزين :

أن بكائى على الضنا الغالى ، كان بكائى على أمى لحظة موت أخى الأكبر لما حرمتّ الزاد على جوفها أسبوعا إلا يومين .

وهى الآن فى حضنى ، وإذ تقترب العربة من البيت أتمنى إلا نصل فتجرنا جرا . تتنفس بصوت عال ، صدرها يعلو ويهبط ، كلمتها لكنها ما كلمتنى . قال الأسطى "خليل" : كن رجلا يا "جمال" .. فلم أعد أبكى ، لكنى قبلتها فى خدها اليمين وكان بعيدا عن خدها الشمال ، شعرت بدفئه فنزلت دموعى على خد أمى دون حس ولا خبر ، لم يرنى الأسطى "خليل" فتركتها تسيل .

وصلنا ، وكان شارعنا ملأنا بالناس . من الأحباب صنف ، ومن الأعداء صنفين ، إستقبلونا بالصوات والعويل حتى باب البيت ، حملت أمى فوق كتفى فوضعوا لحاف أمى الجديد على الأرض ، أنمتها برفق ووقفت فوق رأسها أشن وأبكى ، فتحت أمى عينيها نصف فتحة أو نصفين ، نظرت إلىّ دون الخلق ، لكنهما أغلقتا قبل أن تتملانى عينا أمى فتحيرت من أمرها وتعجبت .قلت : لا زالت الروح فيها ، قد تصحو أمى فى أية لحظة ، قد تعود لزمن الرمح الذى ولى وما عاد يجئ. تحلقوا حولها ، وجعلوا من بين أيديهم سدا ، ومن خلفهم ، فغشى

على ولم أعد أبصر أمى .

لما أفقت ، سمعت أحباب أمى ينادون على أمى أن قومى يا حبيبتى، وأن قـومى يا وردة فى جنينه قطفـوك مـبدرين يا عين أمك .إنتظرت أن تقوم أمى ، هى التى قالت :

لا أطلب من ربى إلاّ ثلاث :يوم وداع ، ويوم نزاع ، ويوم أقـابل ربا إسمه الكريم ..

لكنها لم تقم ، فأيقنت أنها تأهبت للرحيل الطويل .

○○○

القصة الثانية

العودة إلى كوم الضبع

"وفى كوم الضبع رأيت مالا عين رأت ، وسمعت ما لا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر" .

من أقوال الجدة "الخضرة" .



أحدّثكم عن أمى ، وأم أمى ، وآخرين ، وهو حديث متواتر خبرنا صحته ، أنهم قالوا فى الحكمة من وجوب الموت فى كوم الضبع .

من كوم الضبع خرجتم إلى الدنيا لتعمروا البنادر، وتنتشروا فى أرض الله الواسعة ، تنجبون من خلق الله ما يسّدعين الشمس واليها عودتكم حين يكون العمر قد بانت أواخره ، وحين يغيب الثريا والميزان ، ولما يتسرطن السرطان ، ويحمل الحمل وحشة الليل فيلين سواده ، وحين تطلب الأبراج الأمان ، وتضرب الجوزاء بشروق الفجر فتنصدع كالسنديان، وإذا تحصد السنبلة بمناجل النور جيوش الظلام ، وتميل كفة الميزان ، ويقع الحوت ويظهر عليه الخسران ، وإذ يلدغ العقرب الأسد ، وإذ يجرى على الجدى من الثور ما يهدكوا سر العقبان ، وإذ يباع المشترى بأبخس الأثمان ، وإذ يطلب الجسد مكان المنشأ والمختبر ، وتطلب الروح غيطان الصبا والنشأة الأولى حيث الجذر ما يزال ، وفيها يلقاكم مولانا "الضبعى" راكبا البراق وحوله جنود لم تروها ، حيث يدثركم بعباءته المنسوجة من ماء البحر ، وحيث يسقيكم شربة لا تظمئون بعدها أبدا ، ويهّون عليكم لحظات الفراق ، وهو صعب ، أن العودة آتية لا ريب فيها ، تكاد تُخفى عن أعينكم ، فاذكروا كوم الضبع تذكركم ، ومن أتاها هرولة حرّمت جسده على دود الأرض ، وحرّمت الشجاع الأقرع أن يمسسه بقرح هذه وصيتى فاستوصوا ولا تهنوا ولا تحزنوا .

بداية العودة :

قلت لأمى النائمة فوق اللحاف الجديد على الأرض أمى يا أمى ، لماذا تنامين هكذا ، قومى حتى لا يتفرج علينا خلق الله من الأحباب

والأعداء . لكن أمى عاندتنى ، هى التى لم تقل لى أف من قبل ولا نهرتنى ، وصاحبتنى فى الدنيا معروفا . كان صوت تنفسها يسمع على مسيرة يوم ، ودخلت مرحلة السكون الموحش ، ولم تسمعنى فخرجت ، رأيت الأحباب والأعداء فى إجتماع يلطمون الخد والخد ، ثم الصدر .

قلت : لماذا يا أحباب أمى تعذبون أمى ، ألم تنهكم عن لطم الخد وشق الصدر يوم فاجأها ملاك الموت بقطف ورقة أعز الولد . ولما جاء الأسطى "خليل" بالعربة وقال هيا ، حملتها على كتفى فأطاعتنى ، وكان جسمها ساخنا فتدفأت ، ثم أننا ركبنا العربة ووقف أحباب أمى لوداعنا فى الشارع الذى عاشت فيه من السنين ثلاثين مما تعدون ، وخرجت منه بيضاء من غير سوء .

استقبلنا الطريق الصحيح ، وبدأنا رحلة الشتاء والصيف .

الآن ، والساعة تقترب من الثانية صباحا ، الأحوال هادئة تماما ، النفس يتردد فى صدر أمى دون زيادة أو نقصان ، العربة يسوقها الأسطى "خليل"، أخى جالس بجانبه، أمى نائمة على صدرى، أختى بجانبها من الناحية الأخرى تضع كف يدها اليمين على عينيها وتبكى فى صمت، وأنا أربتّ فوق خد أمى. إستقبلنا أول لافتة على جانب الطريق :

القاهرة - الباجور - ٦٠ كم .

الجو حار والأشجار مرتخية ، ضوء شاحب من قمر الموت يضيع فى العتمة والحزن ، عما قريب سوف نصل كوم الضبع ، تماما بعد ألف شجرة تعرفها أمى ، وتكون السواقى دائرة وبعض الحلاليف ، كذا يكون الشيخ "الضبعى" خرج من مقامه فى البحر ، فى إنتظار العائدة يحمل برديته المنسوجة من ماء البحر ، ومن حوله جنود لم يرها أحد من قبل .

كوم *الضبع* - ٥٠ كم .

الآن ، لا صوت يعلو فوق صوت أمى ، والعيون تعبت من البص فى العتمة ، أخذت أحملق فيها ، هادئة تماما ، صدرها يعلو ويهبط . إحك لنا يا أم . والزمان زمن الشتاء حيث الليل أطول من النهار .

والمكان – بيتنا الحجرتان وعفشة مياه وصالة .

والأحوال – حال من ينتظرون عشاء تأخر كثيرا . وإحك لنا يا أم .

أحكى لكم يا نن عين أمكم : ولما قابلها ، وكان الشرر يطق من عينيها ، والأفاعى تلعب على شفتيها ، قال لها : السلام عليك أمنا الغولة. فلما قرأ عليها السلام ، نظرت إليه فى حسرة ، ونطقت بعد أن ذرفت عبرة : لو لا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عظامك ، ثم أنها أرضعته من لبنها : شربت من بزى اليمين صرت كولدى أمين ، شربت من بزّى الشمال صرت كما ولدى هلال .

كوم *الضبع* - ٣٠ كم .

خرجت من كوم الضبع وأنا بنت "بنوت" وكان صدرى لم يطلع بعد . فى بولاق الدكرور خدمت على ثمانية أطفال وأب ، وصرت أعامل كما تعامل إمرأة الأب ، ذقت من المرار مقدارين حتى جئتم إليّ وحدانا ، الحق أقول لكم يا عيال أمينة أننى هدّنى التعب والمرض ، وقد صرت مريضة بداء "الكلى" حين يكون وجودها مثل عدمها ، وأمراض أخرى من الحزن على أيام ولتّ وما عادت تجئ ، وهذا أوان الموت يبدو .

بعد الشر عنك يا أمى – يجعل يومنا قبل يومك .

كوم الضبع - ١٥ كم .

قال طبيب الأطبة : إن استطاع أحدكم التبرع بكلية قد تنجو أمكم .
زعقت : أنا يا أمى ولدك البكر ، وأنا يا أم أحق من إخوتى ، وأنا آخذ منى لأعطيك .

قلبى لا يطاوعنى يا نن عين أمك ، وهل أخرب فيك لأعمر فىّ ، أيامك يا ولدى آتية ، أما أنا فعائدة إلى حضن أمى وأم أمى الأرض ، عائدة يا ولدى إلى كوم الضبع ، ففيها نشأنا النشأة الأولى ، وفيها تفرعت سيقاننا ، وإليها نعود ، عليكم بحفظ وصايا أمنا الخضرة فهى الجذر . سمعت بكاء أختى فنهرتها حتى لا تزعج أمى ، وكان أخى يتحدث إلى الأسطى "خليل" كيف أن الرؤية غير واضحة فى الليل .

كنا نقف خلف رجال القرية نعمر البنادق أيام الاحتلال ، نقطع السكة الحديد ، نغنى : يا عزيز ، يا عزيز ، كبة تاخذ الإنجليز ، حين طلع علينا مولانا "الضبعى" راكبا البراق فى سماء الله الواسعة متدثرا بعباءته ، ماسكا سيفه "الظامى" ، حاربنا خلفه حتى كسرنا الأعداء ، وخلفه جنود بعرض المشرق يُسمع صليل سيوفهم على بعد مسيرة خمسمائة عام ، وإلى مقامه فى البحر عاد - هذه يا ولدى هى كوم الضبع .

كوم الضبع - ٥ كم :

أيها الأخوة المؤمنون ، نبدأ أولى شعائر الفجر من مسجد مولانا الإمام "الحسين" ، يتلو علينا القارئ الشيخ "عبد الباسط محمد عبد الصمد" ما تيسّر من الذكر الحكيم .

أمى الآن هادئة تماما ، لا تنطق عن الهوى ، إن هو إلا نفس بطئ يخرج وهنا على وهن ، بعض التقلصات الخفيفة أسفل الشفة السفلى ،

لكنها هادئة، إبتسامتها ناضرة ، إلى ربها ناظرة ، حين بلغت أمى التراقى ، وقيل من راق ، وظنت أنه الفراق ، والتفت الساق بالساق ، قالت ، اليوم إلى ربى المساق .ثم قالت : أولى لى فأولى ،ثم أولى لى فأولى،أن أصّدق وأزكى، وقالت : هذا جلبابى تصدقوا به على روحى وادعو لى .

عمل إبن آدم يرفع إلا من ثلاث : منها إدعوا لى يا أولادى ، ومنها لا تنسوا أمكم ، ومنها زورونى تمنعوا عنى وحشة القبر .

أبكى ، وأختى تبكى ، أخى لا يبكى ، الأسطى "خليل" يشق الظلام بالعربة السوداء . الضوء الشاحب الآتى من أعمدة النور يموت فى العتمة . قال الأسطى "خليل" : نحمد ربنا ، الطريق خال وأحدا لم يوقفنا من عساكر المرور . رد أخى : لكنها لا تزال فيها الروح . فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام، ، والحب والعصف والريحان ، فبأى الاء ربكما تكذبان .

من سنواتى المعدودات لم أر يوما إلا وأسود من قرون الخروب ، أتيت من كوم الضبع يا مولاى كما خلقتنى ، ولى من التصاوير عن البنادر الكثير . فى بولاق الدكرور عشت على الحلاوة الطحينية والعيش "السوقى" ولم أزهق ، أكلت الدقيق السن معجوناً فى الزيت أأشكر أم أكفر بنعمة الله ، حزمت وسطى بحزام "الألشين" وحملت وراء أبوكم الطوب والرمل كما الأنفار ، وكنت أناوله حتى علا المدماك فوق المدماك وبنينا ما يستر ولا يفضح ، وصرت حاملا ، والحمل مصيبة الغلابة ، وكانوا يتفرجون على حين أمسى حاملة ما يهد الجبال الرواسى ، وحين أصبح على لحم بطنى إلا ما يعصمنى من الماء لكنهم إخوتكم على كل حال ، من صلب أبوكم المعلم جاءوا بحكمة الله .

خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار ، فبأى آلاء ربكما تكذبان .

أوصيكم فاستوصوا بمحبة أبناء البطن الواحدة ، إعتصموا بحبل الأخوة ولا تفرقوا ، وأذكروا أمكم وصلوا الرحم ، إذ كنتم نطفا فألف بينكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا الموت والضياع فأنقذكم منه ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد موت أمهم .

وما أنا ألا بشر جاء أوان مماته ، أفإن مت إنقلبتهم على أعقابكم . مرج البحرين يلتقان، بينهما برزخ لا يبغيان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان.

قال الأسطى "خليل" : لا تذكر علينا ذنوب الأولين لتتقدمنا مراحمك سريعا لأننا قد تذللنا جدا ، أعنا يا إله خلاصنا من أجل مجد إسمك ، ونجنا وأغفر خطايانا من أجل اسمك . فبأى آلاء ربكما تكذبان .

"مرحبا بالزائرين "الباجور" محافظة المنوفية " .

تهادت العربه لحظة إجتياز كشك المرور ، خرج شرطى يحمل كشافا للضوء ، نظر إلينا وأشار أن سيروا بالسلامة ، فرقع بشفتيه :

يحيى العظام وهى رميم .

قلت :أنىّ يحى الله أمى بعد موتها ، لكنى تأسفت فى قلبى .

فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان .

قال أخى : خالى يخشى دائما موت الفجأة ، ومن دعائه :

"اللهم أكفنى شر القضاء المستعجل ، ومنه أيضا "

"اللهم لا أسألك رد القضاء ، ولكن أسألك اللطف فيه "

سوف يصابون بالذعر من قدومنا الآن .

قال الأسطى "خليل" أليست لكم مدافن فى القاهرة ؟

قالت أمى : لنا مدافن كثيرة ، لكنها العادة أن نكدح إلى ربنا كدحا

فنلاقيه وسط الأحبة والأهل فى كوم الضبع ، تشهد علينا ساعتها سنوات الصبا والرمح ويشهد علينا مولانا "أبو الفتوحات عبد الله الضبعى" .

لحظة أتانى فى المنام ، شممت رائحته على بعد مسيرة خمسمائة عام، ورأيت نوره يسبق هيبته فعلمت أنه هو ، وأنه ما جاء إلاّ بمقدار ، وأن سبب إتيانه ما هو بالهين ، كلمنى دون أن ينطق ، ورنت كلماته فى وجودى البدنى فارتبكت ، واهتز فرعى ، وكاد صوته يدكنى دكاً ، ويزلزلنى زلزلة ، ولما رآنى لا أعى من حقيقة وجودى الدنيوى شيئا ضمنى إلى حيز وجوده فكان بردا وسلاما على قلبى العليل ، وألقى فى مسامعى فانصتت جوارحى : سلام عليك أمينة يوم ولدت ويوم تموتين ويوم تبعثين حية . فرددت عليه بمثل ما قال .

قلت : أرنى أنظر اليك .

قال :لن ترينى ، ولكن انظرى إلى شفتى فان تحركتا فسوف ترينى.

فلما نظرت إليه خررت صعقا ، ولما أفقت تأسفت فى قلبى ، وعلمت أن رؤيته محال ، وخفت غضبه منى .

قلت : مولاى ، إجعل لى آية ..

قال : آيتك ألاّ تكلمى الناس ثلاثة أيام إلا رمزا .

وقال : مع السلامة يا أمينة .

ثم قال : وهذا فراق بينى وبينك .

فعلمت أن زمن الموات آت لا ريب فيه ، وأن هذا أوان قدومه ، فتأهبت للرحلة التى قطعتها أمى ، وأم أمى ، وأبى من قبل .

قلت : ولكن هذا السفر يزعج أمى فى لحظات ، الموت فيها أقرب إليها من حبل الوريد .

وقلت : لكنها كانت تحب كوم الضبع .

ثم قلت : وكانت تعشق البحر والترعة ، وشجر التوت الأسود الحبشى .

وقلت أيضا : هل أتاكم حديث أمى لحظة يفجأها حنين قلبها بنبأ الذهاب لكوم الضبع ، تنجلى كما العروس ليلة الجلوة ، وجهها ليلتئذ أبيض من غير سوء ، تتعجل الذهاب فتصحو مع نجمة الفجر ، تجهز "السبت" الكبير من الليل ، تستحم وتمشط شعرها السارح على ظهرها فيكون ضفائر ، ويكون كما ذيل الحصان ، أكوى جلباب السفر الأسمر القطيفة والطرحة الحرير الطبيعى ، لا ترتديهما إلا على سفر ، تعبئ "السبت" بالأرز والسكر والعدس ، وأخرج لوداعها فى الصباح حاملا "السبت" تشترى بعض الفاكهه ، تعطينى واحدة من كل صنف ، تضحك فى وجهى : هم يفرحون لمجيئ . خذ بالك من نفسك واخواتك . أقول : لا تتأخرى يا أم .

تدمع عيناى ، تخبط بكف يدها على صدرها : هل يبكى الرجال يا "جمال" ، يا وكستى فى أول بطنى كأنك لم تصبح ولدا طويلا بعد .

– أختك "نادية" الصغيرة لم تبك .

لا تتأخرى يا أم . تقبلنى ، أجرى إلى العربة فأحجز مكانا لها ، تجلس ، تهم العربة بالسير ، تنظر إلىّ : هل معك نقود ؟!

أهز رأسى : نعم . تمد يدها إلى صدرها ، تخرج " البُكْ " ، تفتحه وتخرج نقودا . خذ . لا معى . خذ . أمد يدى وأضع النقود فى جيبى. سأغيب يوما أو بعض يوم .

سلمى لى على خالى ، وجدى ، وكل الناس . أنزل .

أقف على المحطة ، تطل من الشباك ، ألوح بيدى وتلوح بيدها ،

تسير العربة فأظل ناظرا للشباك : مع السلامة ، مع السلامة ، حاسب على نفسك . عند رجوعي البيت ينظرون إليّ ، يضحكون ، يأكلون ولا آكل ، هل تصوم حتى ترجع أمك ، طفل كبير ، إبن أمك .

أنتحي ركنا وأقرأ " روكامبول" ، وحين يهم بقتل "أندريه" أتذكر أمي فأبكي . متى تعودين يا أم ، فان لك وحشة عظيمة ، كأنك تسافرين في زمن بعيد .

فبأي آلاء ربكما تكذبان .

كوم الضبع - هدئ السرعة :

الآن ، وكوم الضبع راقدة في حضن البحر والترعة ، جامع جدي الكبير في أول الطريق ، المقابر على شماله ، البيوت الطين .

فيهما فاكهة ونخل ورمان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان .هدأت العربة، ووقفت تماما أمام بيت جدي ، قال أخي :

سوف أذهب لأخبرهم بقدومنا . كنت أبكي ، وأخذت يدي تتحسس ضفائر أمي ، ضممتها إلى صدري ، قبلتها في عينيها المغمضتين .

سمعت صواتا عن بعد ، جاء أخي ، وجاء خالي وامرأة خالي وعيال خالي، أخذوا يلطمون ، لطم خالي زوجته على فمها وقال إخرسي، فخرست إلى حين ، وقال اسكتوا كلكم، لا أسمع نفس أحدكم .

قال خالي وأخذ يضرب صدره : حمد لله على السلامة يا ختي .

حملناها إلى الداخل ، وضعناها في المندرة الكبيرة .

قالت أمي : نفسي في ميتة كما مات أبي وأمي على سرير واحد .

صعد خالي بجانبها على السرير ، وضع كف يده على فم أمي وأنفها: لا زالت تتنفس ، الروح لم تطلع بعد . قبلها في جبينها وكنا حواليها ، يا حبيبتي ، أنام نومتك يا ختي . كانوا يصرخون .

قلت : خلاص يا خالى !! ما زالت تتنفس والروح فيها .

يا صغيرة على الموت يا ختى . إمتلأ البيت بالناس أشعلوا الصوات فى البيت . صرخ خالى : لا أحد يصوت ، الروح لم تطلع بعد .

سكتوا فجأة ونظروا إلى أمى ، وضع خالى كف يده على فمها ، نظر اليها ونظرتُ إليها ، أمى كانت هادئة ، قبلها خالى فى جبينها وأسبل جفنيها ، أمى كانت تبتسم لى فابتسمت لها . سحب خالى اللحاف فغطى كل أمى ، وأمى أخفت وجهها فى اللحاف ونامت . نزل خالى من جنب أمى ، جلس على حصير الأرض وقال : خلاص .

ثم وقف وضرب كفا بكف وقال : خلاص .

ثم جلس وقال : خلاص يا ختى ، العوض على الله .

وبدأ يلطم خديه

ooo

القصة الثالثة

وفيها ما حدث
بالتمام والكمال
والحمد لله على كل حال

يا أيها الناس ، إذ أقص عليكم حكاية موت أمى فاستمعوا وأنصتوا لعلكم تبلغون من الحزن ما أنا بالغه .

إذ لا يعلم أحدكم كم من السنوات رمحت فى غيطان البرسيم . كلا لا تعلمون ، ثم كلا لا تعلمون كم من السنوات جلست على حافة البحر فطلعت لها امرأة ذات ثدى واحد وعين فى منتصف الرأس تملأ "البلاص" ونادتها أن تعالى يا "أمينة" لحضن أمك - وكانت تشبهها ، ونادتها أن ضعى "البلاص" على رأسى يا ضناى .

فخافت وجرت تنتفض إلى الدار ، واختبأت فى حضن أمها "زينب" وقالت: زمليني يا أم .

وكم مرة أغراها الماء فخلعت ملابسها ورمت بدنها الصغير فى حضن النهر .

الذى يعلم ذلك واحد فقط لمحها ذات مرة تستحم ، ولمحها ذات يوم ترمح رمح أنثى النعام فى السهول .

وهاله جمالها حين التفتت وراءها فتربص بها ، وصار يتعقبها ، ولما أحست بانفلات أنفاسها ، وانحلال عضلات رجليها ، كان قد تحول إلى ريح دخلت أول ما دخلت إلى صدرها الصغير - فتكور ، وانتفض لها ثديان يطلان من ثنايا قميصها الصغير فانفتق ، ونظرت رأت نفسها كما فتيات البنادر اللاتى تطل أثداؤهن من غير حشمة - فاحمر وجهها الأبيض الشارب حليب الشمس ، واخضرت عيناها بلون البرسيم ، واحمرت شفتاها بلون ثمار "الخوخ" ، وصار يمشى فى بدنها فيرسمه رسماً يسر الناظرين ، ثم كرّ راجعا إلى وجهها فكوره وختمه عند خدها

اليمين وأسفل ذقنها .

حين فعل ذلك وقف ينظر إليها فأعجبه رسم يده ثم رجع إلى النهر كما جاء منه . ولما عادت إليه فرح كثيرا جدا ، وضمها فى عباءته الماء، وأمدها بألف، من أتباعه إزدادوا مائتين ، زفوها وهم يحملونها حتى باب المستقر . ولم ينس أن يتلو عليها ما تيسر من حكاياته التى تحبها.

جفت الأقلام ، وطويت الصحف ، وكان نهارا . وإذا الأرض يضج رملها وحصاها ، كذا ترابها.

وإذا الشمس كُوِّرت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا السماء كشطت ، وإذا البحار فجرت ، وإذا يذهب خالى إلى الباجور فيعود بالكفن الغالى والقطن وماء الورد، وإذا يذهب أخى فيعود بشهادة الموت الخضراء وإذا تجىء المغسلة والنساء ويبدأن فى تجهيز أمى ، وإذا تخرج أختى وترانى فتهز جذعى ولا تسّاقط من عينى دمعة واحدة .

وتقول لى : إبك .

وأقول : ما أنا بباك .

إبك

ما أنا بباك

إبك لأجل أمك التى ما عاد ينادى عليها أحد .

فأبكى .

أقف تحت شباك ترقد خلفه أمى .

أيا وردة فى جنينة يا ختى .

أخى الذى يحرس جو مصر يجىء بملابس الجيش والناس يسندونه ، لم يقل له أحد أن أمك تعيش أنت ، لكنه رأى رؤيا عجيبة أثناء الخدمة "شنجى" تعجب لها الحاضرون ، وجاء يبكى .

يا وردة فى جنينة قطفوك يا ختى .

قالت أمى : "جمال" يا ولدى ، و"جمال" يا ضناى ، لا تجعل من يقف على غسلى يعّدد عليّ حتى لا يحرقنى .

يا مرحبا اللى جيتى .. يا ما القبر يقولك يا ختى .يا مرحبا اللى جيتى . وحيات شبابك لأدويك وأبليكى. وقف الرجال عن يمينى ، وعن شمالى وخلفى ، ولما صرخت: أتركونى - لم يتركونى - فبكيت . ووقفت أختى الصغيرة وصرخت : يا ناس ، ما تفعلونه حراما يعذب أمى، دعوها تنام فى هدوء ولا تحرقوها بالعديد ثم جلست تقرأ ما تيسر من قصار السور .

هُو الحكيم . قال ايه ، حكيم الندامة يا ختى .

هُو الحكيم قال ايه .

عطانى دوا يا ختى ماجيتش عليه . يا خرابى يا ختى .

يا دايم هو الدايم ، لا دايم غير الله .

هب الرجال يجرون ، وخرجت النسوة السود وراء الخشبة الخضراء المحزومة بحزام أخضر .

يا دايم هو الدايم .. لا دايم غير الله .

طلعت الخشبة أمام الجنازة إلى الطريق الزراعى ، إنضمت الخلق إلى الخلق ، إستقبلوا الطريق الصحيح وبدأوا يزفون أمى .

يا دايم هو الدايم .. ولا دايم غير الله .

جرت الخشبة تكاد تطير - بل طارت - فجرت الناس وراءها ورأى البعض الشيخ "عبد الله الضبعى" راكبا البراق يتقدم الجنازة ، فتعجبوا من ذكر ذلك .

أمسك "عبد الصبور" ماسح الأحذية بيد رجل ورجل ورجال ، كونوا

حلقة أمام النعش ، أخذوا يسيرون بظهورهم للأمام ، يتمايلون ويقرأون :
وجازاهم بما صبروا جنة وحريرا ، متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا .
إقتربوا من جامع جدى الكبير ، الطريق مسدود بالناس والعربات .
ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. يا خرابى . ياعين أمك يا ختى .
قواريرا من فضة قدورها تقديرا .
أخذنا نخلع أحذيتنا ونتسابق فى دخول الجامع .
قالت أمى :إذا صلى عليّ أربعون مؤمنا ضمنت دخولها .
حين إقتربنا من الترب نادينا : السلام عليكم آل دار الحق .
فردوا علينا بأحسن منها ، ثم وضعنا الخشبة برفق أمام المقبرة المفتوحة .
وبدأنا فى دفن أمى .

ابريل ١٩٨٥

ooo

دراسة

حكايات شعبية
أم قصص حداثية

بقلم: إدوار الخراط

القضية الأساسية التى تثيرها هذه المجموعة، قبل - وبعد - أية مسألة من مسائل البناء الفنى فى القصة القصيرة، هى قضية العلاقة بين التراث والعمل الفنى، وبصفة أخص، فى القصة القصيرة .

وهى قضية أساسية لأنها، هنا على الأقل، لا يمكن - ولا يصح - أن تنفصل عن مسائل التشكيل، والسرد، واللغة، بل عن مسائل الرؤية (أو النظرة بعبارة أدق لأنها أكثر تواضعا) فى هذا العمل الأول الذى يقدمه الكاتب الشاب "خيرى عبد الجواد" .

والنظرة الأولى إلى هذا العمل لا تخطئ قصد الكاتب إلى الموروث الشعبى، بل لعلها تلحظ افتتانه به ووقوعه (ولا أقول سقوطه أحيانا) فى غوايته .

ولعله مما يحمد لهذا الكاتب الشاب أنه ينبهنا ،مرة أخرى، إلى أن القصة القصيرة شكل من أشكال الفن لا تكاد تنتهى مقدرته على التجدد وعلى الانبعاث من رماد الأنماط القديمة، أى أنها شكل غير نمطى باختصار، شأن الفن .

وهو هنا إنما يعود إلى كنز قديم ومتجدد ولا يكاد ينفد، لكى يحقق أو يسعى إلى تحقيق هذا البعث، ولكن كنز الموروث الشعبى هذا على غناه، وبسبب هذا الغنى نفسه، يواجه من يتصدى له بأخطار كثيرة، ولعل الخطر الأول، والواضح، أن الاقتراب من هذا التراث قد يتخذ شكل الأنتهاب، أو مجرد الأستعارة، أو حتى بهرج الترصيع، وليس هذا بالطبع، كأقل ما يقال، شأن الفن، ولن يكون الولع، أو الافتتان، مبررا كافيا أبدا فى هذه الحال، ذلك أن الحب، شأنه دائما، لا يوجد إلا إذا كان ذكيا، وأمينا وكفئا فى الوقت نفسه.

أتصور إذن أن الاقتراب من الموروث، واستلهامه فى الفن، يجب أن يكون على سبيل الاستيعاب والتمثل، والمعايشة، بل المعاصرة بمعنى العثور على

ذلك المستوى من الموروث الذى لا يشيخ ولا يتقادم به العهد ولا يعفى عليه الزمن، ذلك المستوى الحى الدفين الكامن فى عمق الكيان والذى لا شأن له باللحاء الخشن أو الغطاء المبرقش الزخرفى على السواء .

ليس النقل مجرد النقل، ولا التوشية الخارجية، للتزويق والابهار، كلها، بقادرة على الاقتراب من هذا الروح المخصب المتعدد المستويات الذى يبعث فى التراث حياة دائمة الجدة .

هل كانت إجتهادات هذا الكاتب الشاب بمنجاة من هذا الخطر الذى أحدق بأعمال كثيرين ممن نهجوا منهج الاغتراف غرفا من التراث ؟

هذا سؤال من الأسئلة التى وضعها لنفسه هذا البحث الموجز، من الأسئلة الأخرى أيضا، على الأقل، سؤالان يقعان فى الوقت نفسه فى مجال الأخطار التى تتهدد الاقتراب من التراث، كما تتهدد الأخطار دائما من ينشد الكنز المرصود .

السؤال الأول هو هل يعيد الكاتب، الآن إنتاج حكاية شعبية، هل هذا ممكن، دع عنك أنه مشروع؟

أم أن الكاتب فى نهاية الأمر إنما يكتب قصة قصيرة معاصرة، وحداثية، يستلهم فيها، ربما، لا شكل الحكاية الشعبية وحده (وقد أصبح هذا الشكل تقليديا بل نمطيا) بل هو يبتعث روحا معاصرة فى هذا الشكل، أو لعله يجد معنى معاصرا وباقيا وصحيحا فى إحدى طبقات الدلالة من الحكاية الشعبية التى لابد أن تمر بتغير كيمائى وجوهرى مهما ظل شكلها وصيغتها السردية مقاربين أو مشابهين للشكل التقليدى ؟

أما السؤال الثانى فهو سؤال اللغة، باعتبارها مقوما أساسيا فى العمل الفنى الذى يقارب الحكاية الشعبية أو يبتعث الموروث الشعبى على السواء .

* * *

ولعله من حسن الحظ، ومن حسن الفطن على السواء، أن القصة القصيرة لم تعد اليوم، بعد تطورها الطويل المتقلب المراحل، صيغة مقفلة نهائية، بل

هى على وجه الدقة صيغة مفتوحة ولعلها لم تكن فى يوم من الأيام نتاجا محددا سلفا لوصفة موضوعة ومقننة سلفا .

ولذلك فإن هذا التزاوج بين صيغة القصة القصيرة العصرية أو المعاصرة، وبين صيغة الحكاية الشعبية من شأنه أن يولدّ سلاله جديدة، ولكنها فى ظنى تنتمى أساسا إلى القصة القصيرة الحداثية - فليست الحكاية الشعبية بتعريفها نفسه - مما يمكن تصنيفه على سبيل القصد والتدبر، ولكن هذا التزاوج يمكن أن يولد أيضا سلالة هجينة مختلطة النسب شائهة الملامح، لم تجد طريقها إلى القصة الحديثة ولم تكن فى الوقت نفسه حكاية شعبية أصيلة ليس صاحبها قاصا أو كاتبا بعينه، بل هى من صياغة الجماعة التى تتوارثها الأجيال عن الأجيال .

***

ومن ناحية أخرى، تماما، فإنه ليس من المستغرب، بل على العكس، أن تجد فى الأعمال الأولى للقاص الشاب ظلالا قوية، بل رازحة أحيانا، لحياته الشخصية التى لم يطل العهد بها بعد، وأصداء غلابة لتجربته القصيرة فى الحياة، وليس هذا فى حد ذاته عيبا أو مأخذا أو نقيصة، كما أنه ليس فضلا ولا إمتيازا، ولكن المعول فى ذلك بطبيعة الحال هو كيف يعالج القاص الشاب هذه الخبرة، وكيف يجعل منها بقوة الفن شيئا يتجاوز همومه الذاتية على سذاجتها فى معظم الحالات .

ذلك أن البراءة الخام الصراح ليست فضيلة فى الفن، على العكس، أتصور أن البراءة فى العمل الفنى يجب أن تكون نتاجا للصنعة الخفية، يجب أن تكون براءة محنكة .

ذلك أيضا خطر يتهدد معظم الأعمال الأولى للقصاصين .

***

أريد أن أبدأ فأتخلص من أولى قصص هذه المجموعة كتابة، إذ كتبت كما يقول الكاتب فى أغسطس ١٩٨١، وكنت قد تمنيت عليه أن يتخلص منها فلا

يدرجها فى كتابه الأول هذا ، ولكن الخيرة فيما إختار الله وما إختار الكاتب الشاب، فعلى سذاجة العمل ووضوح طراوة عوده، تحمل قصة "الحاوى" مؤشرات عدة، قد تكون جنينية وخاما ، ولكنها مع ذلك مفصحة عن سمات عمل هذا الكاتب .

هذه أمثولة صراح جلية المغزى، أكثر جلاء مما يطيق نسيج الفن، لكن الهم السياسى والاجتماعى عند هذا الكاتب همّ يلهم الكاتب طول الوقت، وإن كان ينجح، معظم الوقت، فى أن يغلف نتوء وخشونته وقسوته بلحم الفانتازيا والخيال والتهاويل التى تتخذ عادة شكل التقرير البسيط المجرد من التعليق، فهو يضع المعجز والخارق موضع الحقيقة المسلم بها دون دهشة ودون تهويل، وهى التقنية الأساسية فى الحكاية الشعبية، وهذه المفارقة الأساسية بين الإستحالة والتقرير ملمح متكرر فى عمل هذا الكاتب بقدر متفاوت الحظ من التوفيق والاحكام .

المشكلة هنا هى تذبذب القصة - على قصرها ووجازتها - بين أكثر من أسلوب للمقاربة والعلاج .

وليس فى نيتى على الاطلاق أن أعظ بانسجام مفترض مسبق التخطيط ولا أن أزعم أن العمل الفنى يجب أن يسير بالضرورة على تلك الوتيرة أو على هذا النمط، وقد يكون فى تعدد المقاربات بل فى تناقضها عامل إثراء للعمل الفنى، ولعله أعون على إكتشاف غنى كامن فى الخبرة لا يسعف بها إطراد العمل على نهج رتيب .

ولكن .. (هناك دائما بالطبع "لكن")

إن تجاوز نغمات السخرية الاجتماعية، واستلهام الخبرة الشعبية المقطرة فى الأمثال، مرة على سبيل التهكم، ومرة على سبيل الإعتبار، وإقحام عبارات عن "حضارتنا التى تمتد فى أغوار الزمن سبعة آلاف عام " فى مقدمة حكاية عن حاو يمثل كما هو واضح فى قراءتى ذلك الزعيم الذى دأب على استخدام هذه العبارة، لكى ينتهى الأمر بأن يأخذ الحاوى "أذرعنا وسيقاننا" ثم تنهى

القصة - الأمثولة - نهايتها التقليدية التى تؤكد أننا جوعى لأننا لم نكن قد نمنا بعد "، أى أن اليقظة قد محت الحلم السئ، هذا كله قد ينبئ بنوايا الكاتب الحميدة، ولكنه يظل مثيرا لسؤال أساسى فى مدى حظ هذا العمل من النضج

***.

بعد أقل من عام من كتابة هذه القصة سوف نجد أن هذا الكاتب الشاب قد بدأ يتخذ طريقه نحو صياغة القصة القصيرة باستلهام الحكاية الشعبية، فى قصة "السحلية"، وبينما كانت لغته فى "الحاوى" تتذبذب بين الفصحى الوسيطة (ان صحت هذه التسمية) وبين الحوار المسرحى، مع حرص بادٍ على سلامة اللفظة التقليدية - بقدر الامكان - والالتزام بقواعد النحو العربى بقدر ما يعرفها الكاتب، فإن "السحلية" تبدأ خطة الكاتب فى أن يضرب صفحا عنّ ذلك كله، وأن يفيد - كلما عن له - من اللفظة العامية أو التى يتصور أنها عامية، وأن يعفى نفسه من عناء القواعد القديمة فى الإعراب كلما رأى ذلك فى صالح منهجه، فها هو ذا هنا يقول ببساطة : " ***أخذت أبحلق فى الحرم*** " أو يقول : "***جرجرنى فى اتجاه المنزل***" وهكذا .

ولعلنى سوف أعود إلى مسألة اللغة بجوانبها المختلفة فيما يلى من هذا البحث، ولكنى سأكتفى الآن بأن أسائل عن ضرورة استخدام لفظة عامية فى سياق فصيح أو متفاصح : "***أخذت أبحلق***" لماذا " ***أخذت*** " هنا ؟

إننى لا أنسى بطبيعة الحال لغة الحكايات الشعبية المطبوعة فى كتيبات صغيرة، حيث نرى مزجا بين مستويين من اللغة، ولا أنسى كذلك أن هناك سحرا خاصا، لمن يعرف أن يتذوقه، ولمن يدرب نفسه على تذوقه، فى هذه الركاكة التى تجئ عفوا فى سياق هذه الحكايات والتى لا تسلم منها حكايات ألف ليلة وليلة وسجلات التاريخ الوسيط والعثمانى وقد أفاد منها واستعارها كتاب محدثون لهم شهرة واسعة .

وأتصور أنه من الممكن توظيف هذا النوع من اللغة الركيكة، فى سياق

ضفر حاذق - أو ملهم - بين "لغات" عدة وشتى . ولكن السؤال الذى يلح علىّ هنا : هل تحقق هذا التوظيف فعلا، وهل حقق بعد ذلك توفيقا ونجاحا ؟

على العكس من ذلك، أجد أن اللغة العامية الصراح التى إستخدمها القاص فى الحوار - كما يستخدمها الكثيرون - أصابت حظا من التوفيق وصحة النبرة وقوة الإيحاء أخطأته محاولات المزج - أو التجاور - بين مستويات اللغة فى الجزء السردى من هذه القصة بالذات، وإن كانت قد نالته فى قصص أخرى .

هذه القصة الموجزة جدا، أيضا، تحمل مؤشرات واضحة تتكرر فى القصص الأخرى، وتتأكد فيها .

وإذا كنت قد ألمحت إلى ضغط العناصر المتعلقة بالسيرة الذاتية (الأوتوبيوجرافية) فى هذه القصص كلها، فلا بأس من إستخلاص أولى هذه العناصر فى هذه القصة بالذات، على أنها سوف تكون نغمة مترددة ومراوغة وملحة أحيانا فى سائر القصص .

سوف نجد أن الراوية هنا - وعلى طول القصص وعرضها - ما زال فى بواكير العمر، بل هو على الأغلب ما زال فى طور الحداثة الأولى، وسوف نجد دائما وجودا أو حضورا أو ضغطاً رازحا للأب فى القصص كلها، باستثناء قصة واحدة هى قصة " **ظل الحبيب** " التى تنفرد بقسمات خاصة فى أكثر من مجال، سوف نجد أن للأب ملامح أوديبية واضحة بل سافرة، فهو دائما غاضب وقاس ومتسلط، وهو يضرب الطفل الراوية، أو الراوية الذى يستعيد طفولته فى اليقظة وفى الحلم على السواء، ويشتمه، ويقمعه، لكن الطفل حتى عندما يتمرد على هذا القهر ويتحداه فانه لا يكرهه بل نحن نلمح عنصر الإفتتان بقوته وسطوته حتى إذا ما جاءت قصة "ظل الحبيب" إستحال ذلك كله إلى نوع من تقديس الأب بل من تأليهه .

وهنا تثور مسألة العلاقة بين الأب والسلطة الدنيوية والأخروية على السواء، ومن الممكن أن نجد فى أعمال هذا القاص الشاب تلك الثنائية أو

الازدواجية التى تظهر فى أعمال الكثيرين من أقرانه (أو تكمن فى ثناياها) : ثنائية التمرد والتسليم بازاء السلطة الأبوية والسلطة على مختلف تجلياتها، بل من الممكن أن ندفع بهذا الاتجاه إلى آخره فنتساءل، بحق، عن علاقة هذا الكاتب بسلطة التراث نفسها، إذ يسلم لها عنانه، مأخوذا ومبهورا ومفتونا فى الوقت نفسه الذى يتمرد فيه عليها، فيعدلها ويصححها ويطوعها ويعيد صياغتها، بقدر متفاوت من النجاح بين كل عمل وآخر .

لكن أعود إلى استقصاء عناصر الشخصية الرئيسية فى مجموع هذه الأعمال : شخصية الراوية الطفل أو الراوية الذى كان طفلا فى النص، معاصرا وتاريخيا على السواء، فنجد حرصه على تأكيد مقومات بيئته وطبقته لا من حيث المشاهد الخارجية التى هى فى الغالب حارة مزدحمة وضيقة، ولاالمشاهد الداخلية حيث نجد دائما الطبلية ولمبة الجاز والحصيرة إلى آخر مقومات البيئة، بل وأساسا، فى لغة الحوار المفصحة عن الطبقة المسحوقة المتمردة وعن الطفولة المسحوقة مرتين، مرة تحت وطأة القهر الطبقى ومرة تحت نير القمع الذى تنوء به الطفولة عادة فى مجتمعاتنا، ولكنها طفولة متمردة ورافعة الرأس، مرتين كذلك، بل أكثر، إذ هى قد عرفت فى النهاية كيف تصوغ هذا التمرد لا عن طريق أحداث القصص فحسب بل من خلال العمل الفنى نفسه الذى يحقق نوعا من التحرر والسيادة فى الوقت نفسه الذى يحقق لنفسه وعيا ومعرفة وذكاء فنيا .

وما دمنا ابتعثنا العلاقة بين الطفل الراوية وأبيه فلا مفر من أن نشير إلى الطرف الأهم والباقى من المثلث الأوديبى، وأعنى بالطبع الأم التى يفرد لها كاتبنا ما يسميه "ثلاثية موت أمى" ولكنه على الأخص يفرد لها حبا طفوليا عميقا ومؤثرا يتخلل أعماله كلها، بل يكاد يشفى وخصوصا فى إهداء كتابه على مهاو رومانسية ساذجة وتقليدية الصياغة تأتى فيها للمرة الألف نغمة العاطفة المغلفة بالألفاظ العاطفية "إبتسامة الطفل وسنة النوم والدعة والسكون وحضن الأرض" وهكذا، ولكن ما قد يغفر للكاتب هذا السقوط

العذب فى حضن رومانسية لفظية كادت الآن تفقد كل كشافة، هو أنه فى صلب أعماله فى قصص مثل : عن الدود والشرانق والموت، أو مثل الجعران، أو مثل حكاية المرأة التى ولدت تحت جمل، ومثل ثلاثية موت أمى .يخلص تماما من إسار هذه العاطفية الرخوة الجديرة فى الحياة ربما بكل تقدير ولكنها فى الفن ليست إلا تكرارا لقوالب وجدانية ممسوحة الحدود من فرط الاستعمال، فهو يخلص من هذه العاطفة إذا لكى يبتعث عاطفة أخرى أقوى جنانا وأصلب عودا وأقرب إلى أرض الواقع بما فيه من تشويه وقبح وما فيه أيضا من كرامة كامنة .

* * *

على أننى لا أريد أن أخلص تماما من هذه القصة الوجيزة "السحلية" الا بعد أن أشير على الأقل إلى غنى ميثولوجى لا يثقل علينا ببذخه وفحشه بقدر ما يخايلنا بوجوده مخايلة سريعة ولكنها موحية . فما من حاجة بى إلى أن أعقد مقارنة قريبة المنال بين سحليه خيرى عبد الجواد" بما فى جوفها من مفتاحى الخير والشر، الجنة والجحيم، الخلاص والهلاك، وبين حوت يونان الذى خاض النبى غمرات الشك والإيمان فى جوفه، والطفل الراوية الذى يجوس فى بطن السحلية بحثا عن مفتاح الخلاص الذى إذ يعثر عليه - أو يظن أنه قد عثر عليه يستولى أبوه عليه ليذهب بمفرده إلى الجنة (لا نستطيع هنا أن نغفل الوضع الأوديبى) ولكنه فى النهاية يقف ثائرا متمردا على كل الآباء وكل السحالى وكل المفاتيح يقذف بالزلط بينما السحلية تبتعد وتفلت من يديه وتتركه وحده، لا يعتمد إلا على نفسه وقواه الداخلية وحدها ، فى غنى عن المفاتيح الأسطورية وإن كان قد عرفها ، وفقدها .

وفى خلال السرد لا تخطئ الأذن نغمة السخرية - وتهكم خفيف - بالخرافة كلها ، إنه كما قلت إذ يقرر المستحيل ويضعه أمامنا مسلما به دون تهويل ودون استغراب لا ينسى أن يسخر من نفسه قليلا وهو يفعل ذلك .إنه لا يسخر من طفولته وأحلامها ، ولكنه كأنما يسخر - قليلا - من طفولة الوعى

الإنسانى كله .

***

" الكائن الليلى" قصة عجائبية، مغرقة فى الغرابة وهى قصة مركبة، وعلى قصرها النسبى قصة مزدحمة لا بالأحداث فقط، ولا بتقنيات الفلاش باك والعناوين الفرعية وتعدد أصوات الراوى - وهى كلها تقنيات شكلية بحتة - وقد نصلت جدتها من زمان، ولكنها فوق ذلك كله مزدحمة أو مكتظة بأكثر مما يحتمل وعاؤها (الذى لابد إذن أنه قد إنشرخ هنا، وتشقق متشعبا هناك)، هناك الخرافة والتفاصيل اليومية جنبا إلى جنب، هناك التبرير أو التفسير العقلانى الذى يحاول الكاتب أن يشرح به الخرافة جنبا إلى جنب مع تقرير الخرافة، وهناك وصف مظاهر الفولكلور الشعبى بنظرة أقرب قليلاً إلى الدهشة جنبا إلى جنب مع تعليق النهاية وتركها مفتوحة متعددة الامكانات متروكة للقيل والقال على غرار ما كان يفعله كتابنا القدامى فى العشرينات والثلاثينات عندما يعمدون إلى التشويق والتجهيل وإثارة الاهتمام.

لكن هذه القصة مع ذلك عمل له أهميته، وفى غمار زخمها تبرق لمعات آسرة للعين، ولو أخلص الكاتب عمله لعنصر واحد جمع حوله روافده لخرج له كشف له دلالته، فما زلنا نحس أن هناك بحثا حول معنى الشيطان القابع فى جسد الفتى القوى، ومعنى الفساد الخفى الذى ينخر فيه، أهو فساد كونى ميتافيزيقى، أم هو عطب أخلاقى، أم هو اختلال إجتماعى ؟ أهو الشر الأولى المقدور، أم هو غيابات اللاوعى، أم هو فى النهاية قمع وجود إنسانى اجتماعى بحت ؟

أم لعل الشر الأساسى (الذى يتخذ عند خيرى عبد الجواد شكل الدود) هو عجينة كثيفة من هذه المقومات جميعا ؟ هذا البحث فى تصورى كان كفيلا بأن يجعل من هذه القصة عملا متميزا لو أنه مضى على وجهه إلى أعمق ولو أنه وجد صياغة أكمل وأكثر تحققا .

ومع ذلك فلا يغفل المرء خطفات شاعرية حقه فى غمار زحمة القصة، ولا

يخطئ المرء كاتبا يبدأ فى أن يتخذ لنفسه أسلوبا خاصا مازالت فيه آثار من لغات اللغة عند "يحيى الطاهر عبد الله"، ومازالت فيه أصداء بعض كتاب الخمسينيات والستينيات عندما يذهبون إلى القرية، ولكنه يبدأ من الآن فى أن يجد صوته، وايقاعاته، بل كشوفه.

من المعروف للكثيرين أن الهم بالموت، والإنشغال به، والروع منه، والحس بخطره إنما هى كلها من مميزات الشباب، ومن هموم شباب الكتاب والشعراء - وكأنما المرء إذ تتقدم به السن يجد نوعا من المصالحة بينه وبين الموت .

فليس من الغـريب إذن أن نجد هذا العكوف على الموت فى عمل هذا الكاتب الشاب، تلك غواية أخرى قد أسلم لها قيده وغاص فى خضمها، والموت هوالتيمة الرئيسية فى ثمانى قصص على الأقل أى أكثر من نصف قصص هذه المجموعة، ولكن وجوده مبثوث فى أكثر من ذلك بكثير - عددياً فقط - أما الهم به مباشرة أو عن طريق المقابل الإستعارى (الوطواط - الدود - الجنية - الدفانة - وهكذا) فهو ماثل فى معظم إن لم يكن كل أعماله حتى ليخامرنى شك نقدى، مازال يحتاج إلى يقين، فى أن الجنس عند هذا الكاتب الشاب - وهو موضوع له أهميته الكبيرة عنده - يظل نظيرا للموت ومقابلا له، بل هو أيضا فى بعض الأحيان - فى قصة الدفانة - شر قاتل، أى شر لا عقاب له إلا الموت .

لذلك - ودون أن يجرفنا هذا البحث بعيدا عن موضوعه الرئيسى أى موضوع العلاقة بالتراث الشعبى سأحاول أن أتناول ما يمكن أن أسميه بقصص دورة الموت أو فلك الموت، فى هذه المجموعة :

"عن الدود والشرانق والموت" و " النحلة " و " لما اتانا الموت" و" ثلاثية موت امى "، وبدرجة أقل، أو على الأصح بدرجة أخف ***" الديب رماح "*** و***"المواجهة"*** و***" الوطواط"*** أما ***"ظل الحبيب"*** فهى على علاقتها بالموت إلا أنها قصة متفردة فى سياقها الخاص .

***

" لما أتانا الموت " هى قصة طقوس الموت، وطقوس الهجرة للعمل فى البلاد العربية، والقاص لا يمزج، ببراعة سهلة، بين شقى الطقوس، بل يفصل بينهما، بأن يأتى فى منتصف الحكاية تقريبا لكى يقول : *أول ما نبدى القول نصلى على النبى، نبى عربى ركب البراق وسار* . إنه لا يبدأ القول من هنا، بالطبع، ولكنه يعود إلى بداية مقلوبة لكى يحكى لنا مسيرة "زين البلاد الذى ذهب ليرى بلاد العرب " .. إلى آخره، ثم "عاد عودة الزغبى الأحمر الذى كان يحمل حريته، عاد فى ردائه الأبيض " ميتا، هالكا، مفلسا " لم يكن قد كبش من بلاد الفلوس بعد" . هذه القصة متميزة أيضا فى أكثر من مجال .

هنا نرى بوضوح مدى سيطرة القاص على عناصره، كما نرى جرأته (التى تتكرر فى أعماله الأخيرة) فى إدراج مقتبسات النص الشعبى التراثى (ولا أقول اقحام هذا النص) فى صلب العملية السردية، لا يتردد الكاتب هنا فى أن يورد نص العديد، ونص محاكمة الملكين للميت، بحذافير النصوص، كما لا يتردد فى أن يعدد طقوس الدفن والإعداد للدفن وفى غمار تعداد هذه الطقوس تأتى معجزة أن تتحرك يد الميت لتستر عورته، كما أننا نرى بوضوح مدى توفيق القاص هنا فى ضفر هذه العناصر كلها ضفرا محكما وسلسا فى الوقت نفسه بما فى ذلك مزج النص التراثى بالنص المحدث السردى بحيث تتحقق لهما وحدة خفية تجمعهما دون نتوء لأحدهما عن الآخر .

فى هذه القصة التى يصل فيها فن هذا الكاتب إلى إحدى ذرى النضج والتمكن، سوف نرى تيارين من الدلالة يتدافعان ويتمازجان ويصبان فى مجرى واحد جامع، يمكن أن نسمى التيار الأول تيار الروع من الموت والجهد فى السيطرة عليه من خلال سحرية الطقوس، ويمكن أن نسمى التيار الثانى تيار إدانة الظروف الإجتماعية المتردية التى تدفع بالناس - وهم أخيار بطبيعتهم - إلى شر الموت، وشر الفساد، وشر التحلل، ظروف الفقر والانسحاق والقمع التى لا يستنيم تحت وطئها الناس بل يعملون على تجاوزها بشكل أو بآخر، وقد لا يكون نهج التجاوز هنا أو هناك سليما أو فعالا، لكن

قضية التجاوز والتغلب على القمع قضية مطروحة دائما .

وسوف أجد أن هذين التيارين من الدلالة، على قوة أحدهما هنا أو تهاونه هناك، هما التياران اللذان يشكلان مجرى المعنى الأساسى فى فن هذا الكاتب الشاب، وفى مجمل أعماله التى أعرفها، فى هذه المجموعة من القصص أو فى غيرها على السواء .

***

أما قصص موت الأم عند "خيرى عبد الجواد" فلا تقتصر على الثلاثية (كما أسماها) بل تندرج فيها، بوضوح، قصتان هما :

"عن الدود والشرانق والموت" و "النحلة" من ناحية، كما ان هذا الكاتب قد قال لى أن الموضوع لم ينفد عنده بعد، وفهمت من حديثه أن طاقة هذا الموضوع أو شحنته مازالت عارمة تضطرم فى وجدانه، وأنه مازال بصدد الكتابة عنه، فيما يسميه الكاتب رواية طويلة . فلك أن تتصور مدى الحاح هذه التيمة أو الخبرة أو المحنة على نفس كاتبنا .

فى قصة **"عن الدود والشرانق والموت"** ترميز واضح وسافر بين طرفى المجاز القصصى : موت الأم بفشل كلوى فى طرف، وهرب الفراشة التى يربيها الطفل إذ تنبثق عن شرنقتها التى يربيها، بعد أن تتحول دودة القز إليها فى سبيل محاولته أن يجنى حريرا طبيعيا .

وضع الطرفين المتقابلين فى عملية السرد والبناء القصصى وضع مباشر، يكاد يكون مصنوعا، متدبرا، حتى لكأنك تحس يد الصانع تضع طوبة هنا مقابل أن تضع طوبة مقابلة هناك، تبنى هذا الجانب، مقابل أن تبنى ذلك فى مواجهته، دون أن تتحقق للبناء وحدة أو تماسك عضوى . وإذا وضعنا فى اعتبارنا أن هذه القصة من أولى أعمال القاص الشاب فلعلنا نجد له العذر بل لعلنا نحمد له الجهد فى السعى نحو وضع تركيبة فنية - مهما كان حظها من التوفيق - بدلا من أن ينساق وراء العفوية والانثيال والتميع وكلاهما يجرف الكثيرين جدا من القصاصين الشبان .

أتصور أيضا أن اقحام صيغ العديد فى هذه القصة جاء متعمدا، وكأنه نوع من الترصيع الخارجي، أو كأنه نوع من تجربة الصنعة التى أحكمها القاص فيما بعد .

ومن العناصر المقلقة فى هذه القصة ما يمكن أن أسميه عنصر "الاسترجاع الزائف" وأعنى به محاولات عدد من القصاصين اسباغ قدر من السذاجة والبراءة على طفولة بطلهم، لا يتفق ببساطة مع ما تتميز به كل طفولة - وأكرر كل طفولة - من وعى ومكر ومعرفة .

فى هذه القصة أيضا مقابلة أصبحت الآن متوقعة ومألوفة فى قصص "خيرى عبد الجواد"، بين الموت والفقر أو الموت نتيجة الفقر .

حكم الادانة النهائى قاس جدا، وواضح جدا .

* * *

فى "**النحلة**" علاج آخر للتيمة نفسها، وسوف نلحظ على الفور أن موت الأم يأتى هنا بالنسبة للراوى فى سن متقدمة قليلا عن مجيئه فى القصة السابقة، فبينما كان الطفل الذى ماتت أمه فى القصة السابقة طفلا صغير السن يربى دود القز، نجده هنا، بازاء المحنة نفسها، صبيا قد كبر قليلا وتمت له خبرات صبيانية تتراوح من تدخين أعقاب السجائر إلى تقبيل "البنت "توحة" ذات الثديين الكبيرين جدا والحبوب التى تملأ الوجه" "التى أخذت تفعص جسدى بيديها وجسدها" . وذلك وحده يمكن للقاص إدخال عناصر لها أهميتها فى الكثير من أعماله الأخرى أيضا، واقصد بها عنصر الجنس الصبيانى أو الطفولى اذا صح التعبير، من ناحية، وعنصر التركيز على طقوس اللعب والزمالة

ولا يفوتنى أن أشير بسرعة إلى تصوير شخصية الأب فى هذه القصة باعتباره لا عنصر قمع فقط، بل باعتباره أيضا وعلى نحو ما خائنا لذكرى الأم الحبيبة المفقودة، إذ يعابث "خالتى عايدة زوجة عمى صالح"، كما لا يفوتنى أن أشير إلى عالم الحارة المترابط المحتشد الذى يشارك فيه الناس

بعضهم بعضا فى أخص شئون الحياة والممات مشاركة حميمية وخصوصية .

ومازال وضع الانسحاق والفقر يسيطر على أرضية القصة، ومازال النزوع نحو تجاوزه - باللعب أو بالجنس، أو بالترابط الحميم بين أهل الحارة باعتبارها أشكال التمرد المتاحة لصبى يعانى محنة النضج أمام الفقر وأمام الموت، مازالت هذه كلها - كما تظل دائما - من القسمات الرئيسية فى القيمة الدلالية لهذا العمل .

***

وبهذا نصل إلى ما يسميه القاص **"ثلاثية موت امى : احدوثة عن الفقد"**، وفيها يدخل القاص مواقع جديدة من مناطق عمله القصصى، كما يطور من تقنيات إبداعه فى علاقتها بالموروث الشعبى على الأخص فى مختلف تجلياته، سواء كان ذلك فى مجال "العديد" أو مجال التنجيم وعلم "الزرجة" أو مجال حكايات شعراء السيرة والربابة، أو مجال حكايات الأنبياء، أو أغانى الأطفال أو هزجهم العامى الذى يتصل بالفوازير من قريب أو بعيد، أو غير ذلك من كنوز الموروث الشعبى العامى أو الخليط أو التقليدى الفصيح الذى ندر أن وجد طريقه إلى الأعمال الفنية فى صيغتها المحدثة .

وفى هذه الثلاثية يدور محور القصص حول تفاصيل مرض الأم وموتها وما يصاحب ذلك من طقوس السفر إلى أرض الميلاد التى هى أرض المعاد، ويتوارى المعجز فى الحادثة والخارق إلا بلمس رقيق مضفور ببراعة تامة فى قلب النسيج الذى تتعدد ألوان سداه ولحمته وتختلف مقدماته، كما أشرنا إلى بعضها . ومن التقنيات الناجحة عنده فى ***" العودة إلى كوم الضبع "*** على سبيل المثال أنه يستلهم النص القرآنى والنص التوراتى عند إستشراف أرض البلدة التى شهدت مولد الأم وسوف تشهد عن قريب مماتها .

وفى القصة الأخيرة من الثلاثية وهى المعنونة "الجنازة" سوف يفجؤنا أن يعود القاص، بتقنية أصبحت مألوفة الآن وقد رأيناها فى قصة **"لما اتانا الموت"** إلى لحظة البداية فى زمن سردى يقارب لحظة النهاية، وإذا نحن أمام مشهد

الأم فى صباها وفجر تفتح أنوثتها اليانعة، تطلع لها من البحر امرأة ذات ثدى واحد وعين فى منتصف رأسها تناديها أن تعود لحضن أمها وأن تضع البلاص على رأسها، فتفر تنتفض إلى الدار، ثم يشاهدها كائن خرافى هو من الريح ومن النهر ومن الرجل بأقدار سواء، وإذا هى تونع إمرأة باهرة "يضمها فى عباءته الماء ويمدها بألف من أتباعه إزدادوا مائتين، يزفونها وهم يحملونها حتى باب المستقر"، ومن روعة هذا الإنبثاق الباهر ينقلنا القاص فجأة ودون تمهيد إلى مشهد من مشاهد القيامة " وإذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت وإذا السماء كشطت .. " حتى يحقق قيمة الصدمة على مستويين :

مستوى اللغة - ومستوى الموضوع معا - وهو يوالى العزف على الأوتار النقيضة إذ ينتقل من الواقع الأرضى إلى التحليق الأخروى، ومن اللغة اليومية إلى اللغة القدسية على الترتيب ودون واسطة فلا يترك للمتلقى فرصة الإستنامة إلى أى من السلمين الموسيقيين على المستوى اللفظى ولا إلى أى منهما على مستوى الشحنة الشعورية، سواء .

ولا تخطئ العين أن نهاية هذه المجموعة - وهذه الدورة من القصص، كلتيهما، تأتى بفعل البداية، وأن آخر جملة فى الكتاب هى : ***"ويدأنا فى دفن أمى"*** فكأنه لا يترك للقارئ دعة أن ينفض يده من الكتاب ولا يهدهده أو يعده براحة الانتهاء، بل هو يهزه مرة أخرى، ويتركه فى غمار فعل البداية، حتى لو كانت هذه البداية، بطبيعتها، هى أيضا نهاية حياة .

* * *

سوف أزعم أن قصتى **"المواجهة"** و **"الوطواط"** إنما تدوران، من طرف خفى، حول المحور نفسه، وأتصور أن القاص لم يختر عبثا **"المواجهة"** عنوانا لقصته الأولى فى هذه الثنائية، ذلك أن المواجهه هنا انما هى بازاء قوة تفوق مجرد القوة الحيوانية المتمثلة فى القط أو مجرد روع التصاق **"الوطواط"** بالوجه كما تجرى بذلك العقيدة الشعبية الشائعة إلا اننى أتصور أن التوفيق قد جانب الكاتب إلى حد كبير فى كل من هاتين الحكايتين اللتين تعود

كتابتهما إلى ١٩٨٢، فلا يخطئ الحس ضغطا خارجيا من الكاتب نفسه على تحميل "القط" فى قصة "**المواجهة**" بمعنى أكبر مما يحتمله نسيج القصة، سعيا فقط إلى تأكيد قيمة إيجابية مفترضة، ولا يخطئ الحس مرة أخرى أن الإتيان فى "**الوطواط**" بقصة خلق الأرض والسموات أمر يصعب فهمه وإساغته . بل كأن "**الوطواط**" تنقسم قسمة لا سبيل إلى التحام شقيها بين خرافة وأخرى لا صلة لاحداهما بالأخرى .

فى "**المواجهة**" قدر من الاضطراب فى البناء يصل إلى غايته فى "**الوطواط**" وفى القصتين كلتيهما ملاحظات ذكية أحيانا، ونيئة أحيانا، كيف عرف الراوى مثلا أن "عينيه لا تلمعان" وهو لا ينظر فى مرآة ؟ وهل هو قط ذكر أم قطة أنثى ؟ يتراوح الراوى بينهما حتى يكاد يقنعنا أن جنس هذا الحيوان ليس مهما، ولكن الأمر فى تصورى أبسط من ذلك كله، وفى "**الوطواط**" يبلغ الافتتان بالتراث غاية تهزم نفسها بنفسها، فاذا هو مجرد نقل وسقوط فى الغواية .

* * *

فى قصة "**الحجاب**" هو الافتتان نفسه بالتراث لكنه افتتان موظف ببراعة ومضفور بحذق، وتتراوح العملية السردية بين الحكاية التراثية والحكاية المعاصرة مأخوذة على وجهها كما يعيشها أبطالها لا كما يعيشها أو يعقلنها كاتبها، "**الحجاب**" له سطوة الشفاء الذى كاد يبدو مستحيلا، لماذا ؟ أيريد الكاتب - مع ذلك - أن يلهمنا بأن ثم سحرا شعبيا لا يغلب، هناك فى القصة ما يوحى بذلك، وخاصة عندما يموت الملك القديم محبطا بينما نجد أنه لو "*وجد اثنان كالشيخ حمبوسة فى بر مصر، ولو كان، لكانت مصر محروسة حقا، ولا كان ما كان، ولا دخلها الجن والعفاريت*" هذه ايماءة شديدة الوضوح فيما أتصور إلى دخول القوى الشريرة إلى مصر إذ ليس فيها الا "حمبوسة" واحد، فلو كان منه اثنان ..؟

لكن القصة تجرى على سنتها بسلاسة إذ ينتقل القاص من نغمة قديمة

تراثية إلى نغمة محدثة واقعية دون نتوء ولا خدوش، وحتى لو كان تأويلنا لنهاية القصة ومغزاها قد ذهب إلى أبعد مما تحتمله المسألة، فسوف تبقى لنا قصة ممتعة ولا تخلو من دلالة، هي دلالة الايمان والاشراق، وقد نجح الكاتب هنا في أن يضع نص الحجاب في مقدمة الحكاية لا في صلبها، فلعله إن جاء في سياق القصة نفسه لأثقلها وزحمها واضطرب به مسارها .

***

قبل أن أستطرد إلى مزيد من عرض نصي موجز لسائر أقاصيص هذه المجموعة المتميزة،أحب أن أرصد، بسرعة، ظاهرة اللغة الخاصة التي يصوغها ويطوعها لرؤيته هذا الكاتب الشاب المتميز .

سوف أنتزع بضع عبارات وألفاظ من سياقها، أولا، لكي ألقي عليها الضوء، فانظر مثلا إلى هذه الألفاظ والعبارات، على سبيل المثال لا الحصر :

كنت أبحلق في الحرم
حنكه ناشف
بصة العين
في وشي
ملأ الطين هدومي
أمي طبطبت على ظهري
حتى زهقت
عيون تطق بالشرر
أيقنت أنها عفاريت عاملة أرانب
رمت ريقها في عبها
نحلق على الضفدعة
كان الزرع طالعا كبيرا جدا والدنيا كحلا
أقع أعيط
من يشفي ابنتي ونن عيني له نصف فلوسي

خد أمى المكرمش
تختلط الدموع بلعاب الأنف فتشن
انغرز صف السنان فى اللحم

إن القاص الشاب يقبض على رصيد العامية الشعبية بنكهتها الخاصة ومذاقها الذى لا تضن به . فى معظم الحالات - ألفاظ المعجم القديم، ويمزج ذلك بألفاظ التراث الفصيح والركيك على السواء، يتصرف باللغة بحرية مخيفة . وهى مخيفة لأنها عفوية وتلقائية، ويستخدم الألفاظ المصرية الصميمة دون حرج كأنه يتصورها فصحى وهكذا .

ولم يعد منهج استخدام الألفاظ الفصحى التى ما زال الشعب يستخدمها ولا الألفاظ العامية فى سياق معرب يمثل مشكلة منذ أن أرسى "عبد القادر المازنى" و "يحيى حقى" هذا المنهج، بحرصه ودقته ومكره الحميد، لكن الجديد هنا ليس فقط استخدام سياقات العامية ولغات تعبيرها الخاصة، على نحو "العفاريت عاملة أرانب" وغيرها كثير، بل الجديد فى ظنى هو حقن العملية السردية والحوارية كلتيهما بعصارة خفية سارية تحت الجلد واللحم من نكهة اللغة الشعبية المصرية على مستوياتها المختلفة تاريخيا وطبقياً. فمهما كان كم الألفاظ التى لا تنتمى للمعجم القديم المكترس وهو هنا أكبر منه عند أى كاتب اخر أعرفه - إلا أن المهم ليس فى احصاء هذا الكم بقدر ما تكمن الأهمية فى نوع من التغيير المزاجى العام للغة كلها - عند هذا القاص - إذ تجتمع التقنيات اللغوية بتعددها وغناها لكى يسرى فى العمل كله مناخ لغوى متميز .

على أن الأمر، فى النهاية كما لا يحتاج إلى بيان فيما أظن، ليس أمر حيل لغوية ظاهرية أو شكلية بحتة أى ليس أمر اصطناع وتبرج باللغة، بل هو فى الحقيقة موقف فنى - لا خلاف فى أنه أيضا نابع من موقف اجتماعى وسياسى وثقافى معين - . وليس هذا فقط دليلا على انحياز - لا شك فيه - لجانب الناس المسحوقين وأصحاب الكرامة والكبرياء معا، هو أيضا وأساسا

رؤية طازجة وجديدة ولها براءتها ووقعها، وهو أيضا توحد بالثقافة التى يمكن أن نعتبرها تحتية بأحسن المعانى، أى الثقافة الأساسية القاعدية التى تتأسس عليها ثقافة النخبة التى نسميها عادة بالمثقفين هو إذن توحد بالثقافة الشعبية وعلى الأخص بالطبقات الأعمق غورا فى هذه الثقافة، يلهم هذا القاص بتلك اللغة الخاصة .

وبحفز من هذه الثقافة سوف تجد موقف الراوية (أو وجهة النظر كما يسميها بعض المدارس النقدية) فهو فى القصص الأخيرة على الأخص يتخلى تماما عن تقنية الايهام، والنظرة الخفية المتعالية، ويبرز الراوية إلى الواجهة، يعتلى المنصة أو الدكة على الأصح، ويقول لك هأنذا أروى وأحكى "***وأقول، بعد الصلاة على النبى الزين***" ويقول "***تبدأ الحكاية من هنا لا من هناك***" ، "***ويا مستمعين يا كرام صلوا على النبى خير الأنام***" ، وهكذا يعود القاص، عن طريق التقنيات الشعبية القديمة، إلى صياغات حداثية فى القصة المعاصرة.

* * *

هذه التقنية يستخدمها القاص بتوفيق كبير فى "***حكاية البنت زقلط***" مثلا، عندما يبدأ "***لو سمعت الحكاية من البداية لصدقت ما أقول . فان العفريت لما طلع لى، وكان شكله حمار وقال لى ..***" إلى آخره .

ولكن هذه القصة - مع قصة "***الدفانة***"، على تميزها بقسمات العملية السردية كما عرفناها الآن عند "خيرى عبد الجواد"، تختصان بأنهما علاج مقتحم لما أسميه "الجنس الطفولى" أو "الجنس الصبيانى" حيث يقتحم الكاتب هذه المنطقة التى نادرا ما يرودها كتابنا، وهو يقتحمها ببساطة وجرأة وصدق معا، إلا أنه إذ يمزج بين الخبرات الجنسية الطفلية أو خبرات ما قبيل المراهقة، وبين خرافة العالم الأرضى وما تحت الأرضى فكأنما يشير إلى ما يميز الجنس عند انبثاقه الأولى من شحنات غير مفهومة وكأنها تتحدى مواصفات الحياة اليومية المألوفة، وسوف تجد فى "الدفانة" على الأخص نوعا من المقابلات التى يؤثرها هذا القاص فى بناء قصصه، إذ يضع الأب والأم من ناحية، والولد

و"بهية" من ناحية ثانية، و"عوض" و"بهية" من ناحية ثالثة، وكأن المحور المشترك "بهية" : الأم " هو المحور الذى تدور حوله الحياة بأطرافها الثلاثة فى هذا العمل المحكم الذى لا تشوبه فى تصورى إلا نهايته المزخرفة المسرفة فى التقنية الحداثية التغريبية عندما تنتهى القصة :

"يقول أبى ...
تقول أمى ...
يقول اخوتى ..
أسحب الغطاء فوق وجهى ولا أقول س شيئا "

وما زال تصور الجنس معادلا للحية الدفانة، كأنه شر قاتل مخيف، هو التصور الذى يسرى فى تضاعيف هذه القصة، وكأنما يتفتح وعى الطفل بالجنس باعتباره خطرا مداهما لا على رجولته المرتقبة فحسب، بل على حياته نفسها أيضا .

***

تعمدت أن أترك قصصا ثلاثة إلى نهاية هذا البحث إذ أعتبرها من أقرب قصص هذه المجموعة إلى الكمال، ومن أوفرها حظا من النضج، وأقدرها على استلهام نوع خاص من الشاعرية يتميز به هذا الكاتب، وأعنى بالطبع، قصص . **"ظل الحبيب" و"الديب رماح" و "حكاية المراة التى ولدت تحت جمل".**

فى هذه القصص الثلاثة جميعا ينجح الكاتب فى صهر معطيات الخرافة الشعبية ومعطيات الواقع الشعبى معا صهرا حارا ومحكما فى الوقت نفسه، وتمتاز "ظل الحبيب" بأن الأب هنا يأخذ صيغته الكامنة فى الموقف الأوديبى، فهو ليس هنا رمز القمع والسطوة، ولكنه بعد أن ترك المشهد، هو صورة مؤلهة للذات، وعندما يقول القاص *"رأيت نفسى ونفسى"* فانما يشير بأن الانشقاق هنا انما يقع بين الذات وبين المثال العلوى للذات، بل ان الأب يتخذ شكل الكون كله، بل هو أقوى من الكون : *"أهو القمر الساخن المضئ فى السواد، أهو تلك النجوم التى تشبه فى السماء سواد العين فى*

العين؛ أهو النار .. أهو الماء . بل هو السحاب ، بل المطر ، بل ، بل ، هو .. هو ..

يحتبس القول اذن فى نوع من النشوة والتوحيد بالجلال المتعالى، وقصة البحث عن الأب، أو البحث عن الذات، هى نفسها قصة البحث عن المعنى . ولا أهمية كبيرة فى أن يجد الفنان معنى نهائيا مغلقا على ذاته مدورا مصقولا كالجوهرة اللامعة، أو الدرة المكنونة - فأتصور أن ذلك ليس هو دور الفن فى الأساس - وانما المهم هو كيفية البحث، وطيق البحث .

وفى "**الديب رماح**" بناء طموح لعل طموحه يجد تحقيقا أو فى عمل أطول نفسا وأعرض مدى، اذ تمتزج عناصر الحواديت وأهازيج الأطفال والسير الشعبية والتقنيات المحدثة فى القصة المعاصرة، ويتحول الصياد نفسه فى أكثر من هيئة، ويتقمص أكثر من كيان، وهو مع ذلك يخفى، وراء هذا الوجود المتعدد الصور، شجنا خفيا يتناوله القاص، كما يتناوله المؤلف الجماعى العبقرى للحكايات الشعبية العريقة، بقدر من التسليم أو بنوع من القدرية ليس فيها أدنى شبهة من "العواطفية" المتميعة أو الاغراق الرومانسى. أما "حكاية المرأة التى ولدت تحت جمل " فلعلها فى تصورى أجمل قصص هذه المجموعة الممتعة، فهى حكاية شعرية خالصة عن فعل خرافى خالص، وهى إذ تعتمد تقنيات الراوية الشعبى القديم تسبح فى جوها الخاص البراء دون افتعال ومن غير ذلك الازدحام الذى نشهده أحيانا عند هذا القاص .

وإذا كان يحمد لهذا القاص الشاب، أنه لم يحذر، وأنه رمى نفسه فى قلب المغامرة الفنية بحثا عن صدق عميق وعن معنى شامل، كما يفعل فى "ظل الحبيب"، فانه من المهم أن كتابته - فى مجملها - لا تغفل الحس المأساوى الكامن فى الوضع الانسانى، فى مواجهة الموت وما يمثله الموت من قوى الفساد والشر، ولكنها لا تغفل أيضا قيمة التمرد على هذا الوضع القمعى - وخاصة فى تجلياته الاجتماعية - وقيمة السعى إلى تجاوزها .

القاهرة ١٩٨٧

○○○

الفهرس

○ ○ ○

صدر للمؤلف

حكايات الديب رماح	(قصص) طبعه أولى الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨ طبعة ثانية - مركز الحضارة العربية ١٩٩٥
حــرب أطـالــيا	(قصص) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩
كـتاب التوهمات	(رواية) الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٩٢
العاشق والمعشوق	(رواية) دار شرقيات ١٩٩٥
حــرب بـلاد نمنم	(قصص) قيد النشر
قمر الاقمار (كتاب السحر)	(رواية) قيد النشر

إصدارات المركز

أدب

العنوان	النوع	المؤلف
هذه الليلة الطويلة	(مسرحية)	د. أحمد صدقى الدجاني
حكايات الديب رماح	(قصص قصيرة)	خيرى عبد الجواد
ليس هناك ما يبهج	(قصص قصيرة)	عبده خال
لا أحد	(قصص قصيرة)	عبده خال
مملكة القرود	(مسرحية)	محمود عبد الحافظ
أحزان رجل لا يعرف البكاء	(قصص قصيرة)	خالد غازى
الشاعر والحرامى	(قصص قصيرة)	عزت الحريرى
رشفات من قهوتى الساخنة	(قصص قصيرة)	محمد محى الدين
فى المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	(دراسة)	محمد الطيب

شعر

العنوان	النوع	المؤلف
من فصول الزمن الرديء		درويش الأسيوطى
إذهب قبل أن أبكى		د. لطيفه صالح
اللعبة الأبدية ...	(مسرحية شعرية)	محمد الفارس
غربة الصبح		محمد الفارس
الغربة والعشق		مجدى رياض
عطر النغم الأخضر		عمر غراب
رماد الإساطير		نادر ناشد
السماء تعتزل النبوءة		نادر ناشد
هذه الروح لى		نادر ناشد
فى مقام العشق		نادر ناشد
ندى على الأصابع		نادر ناشد

● بالإضافة إلى العديد من الإصدارات ●

كتب سياسية - سلسلة قومية - سلسلة إسلامية - كتب متنوعة

● خدمات إعلامية وثقافية "إشتراكات" ●

ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة